روَايَة

ليڤ تولسْتوي

الحَاج مرَاد

ترجَمَة:
هڤال يوسُف



التنوير

ليف تولستوي

الحـاج مــراد

ترجمة: هَـڤـال يوسف

الكتاب: **الحاج مراد (رواية)**
المؤلف: **ليف تولستوي**
ترجمة: **هَـڤـال يوسف**

عدد الصفحات: 208 صفحة
الطبعة الأولى: 2016

الترقيم الدولي: 978-9938-886-84-9
رقم الناشر: 16/409-91

الترقيم الدولي: 978-977-6483-77-4
رقم الإيداع: 2016/15735

دار التنوير للطباعة والنشر

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

لبنان: بيروت – بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم – الطابق الاول -
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة–وسط البلد–19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا) –الدور 8 – شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

ليف تولستوي

الحاج مراد

ترجمة: هَڤال يوسف

التنوير

كنت عائداً إلى البيت عبر الحقول، وكان ذلك في منتصف الصيف تماماً. كانت حقول القمح قد حُصدت وبدأ حشّ الجودار للتَو.

في هذا الوقت من السنة تُزهر باقة رائعة من الأزهار: البرسيم الزغبي الفوّاح، الأحمر والأبيض والوردي؛ أزهار الأقحوان الوقحة؛ العرار الأبيض الحليبي بقلبه الأصفر الناصع «أحببتَ أم لم تحب» ورائحته المتبّلة العفنة؛ الشيلم الأصفر برائحته الشهديه؛ أجراس الخزامى الليلكية البيضاء السامقة؛ البازلاء المعرّشة؛ الجلبان الأنيق الأصفر والأحمر والأبيض والليلكي؛ مزمار الراعي ذو الوبر الوردي الخفيف ورائحته اللطيفة الرقيقة؛ العنبر الأزرق الفاقع في الشمس وفي شبابه والسماوي الضارب إلى الاحمرار في شيخوخته؛ وزهور اللبلاب اللوزية الرائحة السريعة الذبول.

جمعتُ باقةً كبيرة من الأزهار وتوجّهت إلى البيت، فوقعت عيني على نبتة لفت كاملة الازهرار في أخدود ذات لونٍ قرمزيٍّ ساحر من النوع الذي يطلقون عليه عندنا اسم «التتري» والذي يقطفه الحصّادون في حذر، وإذا صادف أن وقعوا عليه فإنهم يلقونه بعيداً عن الدريس حتى لا يخز أيديهم. خطر لي أن أقطف زهرة هذه النبتة

وأضعها في وسط الباقة، فنزلت إلى الأخدود وشرعتُ في قطفها، بعد أن طردتُ النحلة الكبيرة الموبّرة التي كانت غافية في تلذّذ وخمول في منتصف الزهرة. لكن الأمر كان بالغ الصعوبة؛ فعدا عن أن ساقها كانت تخزني من كل جانب، حتى من خلال المنديل الذي لففتُ به يدي، كانت الزهرة متشبّثةً بالأرض بقوة بحيث أنني صارعتها خمس دقائق نازعاً أليافها واحدةً واحدة. وحين تمكّنتُ من قطفها أخيراً كانت ساقها قد تمزّقت تماماً، بل إن الزهرة نفسها لم تعد تبدو بالنضارة والجمال اللذَيْن كانت عليهما. فضلاً عن أنها، لغلاظتها وخشونتها، لم تكن مناسبة لأزهِار الباقة اللطيفة. أسِفتُ على أنني أهلكتُ عبثاً الزهرة التي كانت جميلةً في مكانها، ورميتها. ثم قلت في نفسي متذكّراً الجهد الكبير الذي بذلته في قطف الزهرة: «ولكن يا لقدرتها على الحياة وقوتها! كم حياتها غالية عليها، وكم استماتت في الدفاع عنها!».

توجّهتُ إلى البيت عبر حقلٍ منبسط تربته سوداء حُرث للتو. سرتُ في طريقٍ غبراء صعوداً عبر مرتفعٍ قليل الانحدار. كانت الأرض المحروثة ملكاً لأحد المُلّاك الإقطاعيين، وكانت مترامية الأطراف بحيث لم يكن يُرى شيء على كلا جانبي الطريق وفي الأمام باتجاه التلّ سوى أرض مُراحة مُخدّدة باستواء، وكانت محروثة بشكل جيد بحيث لم تكن هناك نبتة أو عشبة واحدة في الحقل برمّته - كان الحقل أسود تماماً. قلتُ في نفسي وأنا أبحث لاشعورياً عن أي شيءٍ حيّ وسط هذا الحقل الأسود الميت: «أيّ كائنٍ قاسٍ مدمّرٍ هو الإنسان! كم أهلك من شتى أنواع الكائنات الحية والنباتات لكي يدعم حياته!». رأيتُ أمامي، إلى يمين الطريق،

شجيرةً صغيرة، ولمّا اقتربتُ منها وجدت أنها ذلك «التتري» الذي قطفتُ زهرته سدىً ورميتها.

كانت لشجيرة «التتري» ثلاثة أغصان، وكان أحدها مقطوعاً وما تبقّى من الغصن يتدلّى كيدٍ مقطوعة، وكان على كلٍّ من الغصنين الآخرين زهرة. كانت الزهرتان حمراوين ذات يوم، أما الآن فهما سوداوان. وكان أحد الغصنين مكسوراً ونصفه متدلّياً إلى أسفل مع زهرةٍ متّسخة في طرفه؛ أما الغصن الآخر فكان لا يزال منتصباً، رغم أنه ملطّخٌ بالوحل الأسود. وكان واضحاً أنّ عجلة عربةٍ قد مرّت على النبتة مراراً، ثم انتصبت ثانيةً ولذلك كانت مائلة، ولكن منتصبة رغم ذلك. كأنما اقتُلعت قطعةٌ من جسدها، وانتُزعت أحشاؤها، وقُطعت يدها، وفُقئت عينها، لكنها ظلت واقفةً ولم تستسلم للإنسان الذي يُبيد كلَّ إخوته من حوله.

قلت في نفسي: «يا لها من قدرة! لقد انتصر الإنسان على كل شيء وأباد ملايين النباتات، فيما هذه النبتة لا تزال صامدة ولم تستسلم!».

وخطرت لي قصة قوقازية قديمة كنتُ شاهداً على جزءٍ منها، وسمعتُ جزءًا من شهود عيان، وتصوّرت ما تبقّى. والقصة كما تشكّلت في ذاكرتي وخيالي هي التالية:

- 1 -

حدث هذا في أواخر عام 1851.

في مساءٍ بارد من مساءات شهر تشرين الثاني وصل الحاج مراد إلى قرية «مَخْكَتْ» الشيشانية الملفّعة بدخان الروث الخانق.

كان أذان المؤذّن المجتهد قد همد للتو، وفي الهواء الجبلي النظيف، المشبع برائحة دخان الروث، كان يُسمع بوضوح، خلل خوار الأبقار وثغاء الأغنام التي كانت تتفرّق إلى بيوت القرية المتراصّة كخلايا النحل، أصوات الرجال الجهورية وهم يتجادلون وأصوات النساء والأطفال أسفل نبع الماء.

كان الحاج مراد هذا نائب شامل، وكان معروفاً بمآثره البطولية، ولا يخرج من دون بيرقه برفقة بضع عشرات من مريديه الذين يرمحون من حوله على خيولهم. وكان الآن، وقد اعتمر عمامةً وتلفّع بعباءةٍ تتدلّى بندقية من تحتها، يسير راكباً مع واحدٍ من مريديه، محاذراً أن يلفت الأنظار قدر الإمكان، وهو يرمق بحذر وجوه السكان الذين يصادفهم في الطريق بعينيه السوداوين السريعتين.

حين بلغ الحاج مراد وسط القرية لم يسلك الطريق المفضية إلى الساحة، وإنما انعطف إلى اليسار ليدخل زقاقاً ضيقاً. ولمّا بلغ

الدار[1] الثانية في الزقاق توقّف وتلفّت حوله. لم يكن هناك أحد تحت سقيفة الباب أمام الدار، أما على السطح فكان يستلقي رجل خلف المدخنة الطينية المطلية حديثاً وقد تغطّى بفروة من صوف الغنم. لمس الحاج مراد الرجل الراقد على السطح بمقبض سوطه وفرقع بلسان السوط، فنهض من تحت فروة الصوف شيخ يعتمر طاقية ويرتدي قفطاناً[2] لمّاعاً مهترئاً. كانت عينا الشيخ حمراوين ورطبتين وبلا أهداب، فكان يطرف بجفونه حتى لا تلتصق ببعضها. سلّم الحاج مراد السلام المعتاد: «السلام عليكم» وكشف عن وجهه.

تعرّف الشيخُ إلى الحاجّ مراد، فقال وهو يبتسم بفمه الأدرد: «وعليكم السلام»، ونهض واقفاً على ساقيه النحيلتين وراح يحاول دسّ قدميه في «القبقاب» الموضوع قرب المدخنة، ثم ارتدى متمهّلاً فروته الصوف المجعّدة وأخذ ينزل السلّم المسنود إلى الجدار ظهراً لوجه. وبعد أن ارتدى الفروة ونزل السلّم، هزّ رأسه على رقبته المتغضّنة التي لوّحتها الشمس مغمغماً بفمه الأدرد بلا توقف. وحين بلغ الأرض أمسك بحفاوة بعنان فرس الحاج مراد وبالرِكاب الأيمن، لكن الحاجَّ مراد اللبق نزل عن الفرس بسرعة ونحّى الشيخ جانباً وأخذ من يده العنان وتوجّه إلى تحت سقيفة البوابة وهو يعرج عرجاً خفيفاً. خرج لاستقباله من الباب فتى في الخامسة عشرة من العمر وأخذ يحدّق في القادمين بعينيه اللامعتين السوداوين كسواد عنب الثعلب.

---

(1) بالشيشانية «ساكلا» وهو عبارة عن مسكن محفور في الصخر، وهي مساكن شائعة في المناطق الجبلية في القوقاز. (م)

(2) بيشميت (بالترية): قفطان قصير مقلّم. (م)

«اركض إلى المسجد ونادِ أباك»، أمره الشيخ، ثم سبق الحاجَّ مراد وفتح له باب المسكن الصرّار. وعند دخول الحاج مراد خرجت من الباب الداخلي امرأة نحيلة جاوزت عمر الشباب، ترتدي قفطاناً أحمر فوق قميصٍ أصفر وسروالاً أزرق، جالبةً وسائد، وقالت: «أهلاً وسهلاً» وانحنت له بإجلال وأخذت تضع الوسائد عند الجدار الأمامي ليجلس الضيوف.

أجاب الحاج مراد: «حفظ الله أولادكِ»، وخلع بردته، ونزع عنه بدقيته وسيفه وناولهما للشيخ.

علّق الشيخ البندقية والسيف بعناية على مسمار إلى جانب أسلحة ربّ البيت، بين أصيصين كبيرين يلمعان على الجدار الأملس النظيف المطلي بالكلس الأبيض.

سوّى الحاج مراد مسدسه وراء ظهره وتوجّه إلى حيث الوسائد التي نضّدتها المرأة وجلس عليها متلفّعاً بسترته الشركسية. وجلس الشيخ قبالته القرفصاء على قدميه الحافيتين، ثم أغمض عينيه ورفع راحتَي يديه إلى أعلى، وحذا الحاج مراد حذوه، وتلا كلاهما صلاةً[1] ومسح كلٌّ منهما وجهه بيديه جامعاً إياهما عند منتهى ذقنه.

سأل الحاج مراد الشيخ: «نَ خَبَرْ؟»[2]، أي: «هل من جديد؟».

«خبر يوك» («لا جديد»)، أجاب العجوز وهو ينظر إلى وجه الحاج مراد وصدره بعينيه الحمراوين التي لا حياة فيهما، «أنا أعيش في المَنْحَل، وقد جئت لرؤية ابني وحسب. إنه يعلم».

---

(1) الأرجح أنهما تلوا الفاتحة، لكن تولستوي يستخدم كلمة «صلاة» التي تعني أيضاً «دعاء». (م)
(2) «ما الأخبار؟». (بالتركية في الأصل) (م)

أدرك الحاج مراد أن الشيخ لا يريد البوح بما يعرف وما يحتاج الحاج مراد معرفته، لذا هزّ رأسه هزّاً خفيفاً ولم يسأل المزيد.

شرع الشيخ يقول: «ما من أخبار طيبة جديدة. الخبر الجيد الوحيد هو أنّ الأرانب تتشاور فيما بينها حول كيفية طرد النسور. والنسور تمزّقها جميعاً، تارةً هذا وأخرى ذاك. في الأسبوع الماضي أحرق الكلاب الروس دريس الميجيتسيين»، ثم حشرج: «قبّح الله وجوههم».

دخل مريد الحاج مراد وخلع بردته، كما فعل الحاج مراد، وهو يخطو على الأرضية الطينية خطوات واسعة وئيدة، ونزع عنه بندقيته وسيفه، مستبقياً خنجره ومسدسه فقط، وعلّقهما على المسمارين نفسهما حيث أسلحة الحاج مراد.

سأل الشيخ الحاج مراد مشيراً إلى الشخص الذي دخل: من يكون؟

أجاب الحاج مراد: إنه مريدي. اسمه إلدار.

«حسناً»، قال الشيخ وأشار لإلدار إلى مكان على البساط اللبّاد إلى جوار الحاج مراد.

جلس إلدار متربّعاً وركّز عينيه الجميلتين الكبشيتين على وجه الشيخ الذي كان يتحدّث، وكان يروي كيف أمسك شبّانهم الشجعان جنديين في الأسبوع الفائت، فقتلوا أحدهما وأرسلوا الآخر إلى شامل في فيدان. كان الحاج مراد يستمع شارد الذهن وهو يرمق الباب ويصغي إلى الأصوات في الخارج. سُمع وقع أقدام في الممر الخارجي، ثم صرّ الباب ودخل ربّ البيت.

كان ربّ البيت، سادو، في نحو الأربعين من العمر، ذا لحية صغيرة وأنف طويل وعينين سوداوين، وإن لم تكونا بنفس بريق عينَيْ ولده ذي الخمسة عشر عاماً، الذي هرع لمناداة أبيه ودخل برفقته البيت وجلس عند الباب. خلع صاحب الدار قبقابه عند الباب وأرجع طاقيته القديمة البالية إلى الخلف على رأسه الذي لم يحلقه منذ وقتٍ طويل، فاستطال شعره الأسود، وجلس قبالة الحاج مراد، وأغمض عينيه، كما فعل الشيخ، ورفع راحتيه وتلا الفاتحة ثم مسح وجهه بيديه، وبعد ذلك فقط شرع يتكلّم. قال إن شامل أمر بإلقاء القبض على الحاج مراد حياً أو ميتاً، وأنّ مبعوثيه لم يغادروا إلّا أمس، وأن الناس يخشون عصيان أوامر شامل، وأن عليه، لهذا السبب، أن يكون حذراً.

قال سادو:

- في بيتي، لن يمسّ أحد بسوء أخي في العهد مادمتُ حياً، ولكن ما العمل في البرية؟ ينبغي التفكير في الأمر.

كان الحاج مراد يصغي باهتمام ويهزّ رأسه بالموافقة، وحين فرغ سادو من كلامه قال: «حسنٌ. يلزم الآن إرسال شخص برسالة إلى الروس. مريدي سيذهب، لكن يلزمنا دليل»، فقال سادو: «سأرسل معه الأخ باتا»، ثم التفت إلى ابنه وقال: «اذهب ونادِ باتا».

وثب الولد واقفاً على قدميه الرشيقتين، كما لو على نابضين، وخرج من الدار مسرعاً وهو يلوِّح بيديه. وبعد عشر دقائق عاد مع شيشانيٍّ متين البنية، قصير الساقين، لوحّته الشمس إلى حدّ السواد،

يرتدي سترة شركسية صفراء مهلهلة ممزّقة الكمّين وسروالاً أسود متغضّناً. حيّا الحاج مراد القادم الجديد وعلى الفور، ومن دون كلمات فائضة عن الحاجة، قال بإيجاز:

- هل يمكنك إيصال مريدي إلى الروس؟

قال باتا بسرعة وابتهاج:

- ممكن، كل شيء ممكن. لا يجرؤ أي شيشاني على منافستي. قد يذهب غيري، ويعدك أن يقوم بكل شيء، ثم لا يفعل شيئاً. أما أنا فأستطيع.

قال الحاج مراد: «حسناً. سأعطيك ثلاثة روبلات لقاء ذلك»، ورفع ثلاثة أصابع.

أومأ باتا برأسه في إشارة إلى أنه قد فهم، لكنه أضاف أنّ المال لا قيمة له عنده، وأنه مستعد لخدمة الحاج مراد بدافع الشرف، فالجميع في الجبال يعرفون الحاج مراد، ويعرفون كيف ينهال على الخنازير الروس...

«حسناً»، قال الحاج مراد، «الحبل الجيد هو الحبل الطويل، أما المقال الجيد فهو القصير»، فقال باتا: «سأصمت إذن».

- حيث ينعطف نهر آرغُون، مقابل الجرف، في المرجة داخل الغابة، ثمة كومتان. هل تعرف المكان؟

- أجل.

قال الحاج مراد: «هناك ينتظرني ثلاثة من فرساني»، فقال باتا وهو يهزّ برأسه: «آها!».

- اسأل عن خان مَحَمَه[1]. إنه يعرف ماذا يفعل وماذا يقول. قده إلى القائد الروسي، الأمير فورونتسوف[2]. هل يمكنك ذلك؟

- سآخذه إليه.

- خذه ثم عد به. هل تستطيع؟

- أجل.

- خذه إليه، ثم عد إلى الغابة، وسأكون هناك.

قال باتا: «سأفعل ذلك كله» ثم نهض واقفاً ووضع يده على صدره وخرج.

بعد خروج باتا قال الحاج مراد لصاحب البيت: «يجب أيضاً إرسال رجل إلى غيخي[3]»، ثم أردف يقول وقد أمسك بجراب من أجربة «الخرطوش» في سترته الشركسية: «ففي غيخي يجب...»، إلا أنه أسبل يده في الحال وأمسك عن الكلام حين رأى امرأتين تدخلان الغرفة.

كانت إحداهما زوجة سادو، وهي تلك المرأة النحيلة التي فارقها الشباب، والتي نضّدت الوسائد. أما الأخرى فكانت فتاةً في ريعان الشباب، وكانت ترتدي سروالاً أحمر وقفطاناً أخضر، تغطّي صدرها كله ستارة من ليرات فضية، وكان ثمة روبل فضيّ معلّق في ذيل جديلة شعرها الأسود الخشن القصيرة، لكن الثخينة، المتدلية

(1) تدوير محلي لاسم «محمد». (م)

(2) سيميون ميخائيلوفيتش فورنتسوف (1828-1889): ابن والي القوقاز ميخائيل سيميونوفيتش فورنتسوف (1782-1856)، الذي سيرد ذكره لاحقاً، وقائد فرقة كورين للقوات الخاصة. (المحرر)

(3) غيخي: قرية شيشانية كانت من معاقل المقاومة ضد الروس. (م)

على ظهرها النحيل، وكانت عينان، كذلك سوداوان، بلون عنب الثعلب الأسود، كعيني أبيها وأخيها، تلمعان في وجهها الفتيّ الذي يحاول أن يبدو صارماً. لم تنظر إلى الضيوف، لكن كان جلياً أنها تشعر بوجودهم.

كانت زوجة سادو تحمل خواناً مستديراً عليه شاي و«شيشبرك»[1] وفطائر بالزبدة وجبن وخبز مرقوق وعسل. أما الفتاة فكانت تحمل طستاً وإبريقاً ومنشفة. ظلّ سادو والحاج مراد صامتَين إلى أن وضعت المرأتان ما جلبتاه أمام الضيوف، وهما تتحركان بهدوء في خفّيهما الأحمرين اللذين بلا نعال. أما إلدار فكان جامداً كتمثال، محدّقاً بعينيه الكبشيتين في ساقيه المصالبتين، طوال فترة بقاء المرأتين في الغرفة، ولم يتنفّس الصعداء إلاّ بعد خروجهما وبعد أن همدت خطاهما الخفيفة في الخارج تماماً. وأما الحاج فقد تناول من إحدى جعب سترته الشركسية رصاصةً، وأخرج من تحت الرصاصة مكتوباً ملفوفاً بشكل أسطواني وأراهما إياه وقال:

- أعطوه لولدي.

سأل سادو: والجواب إلى أين؟

- إليك، وأنت توصله إليّ.

- سيتمّ ذلك، قال سادو ودسّ المكتوب في جعبة سترته الشركسية، ثم حمل الإبريق وحرّك الطست ناحية الحاج مراد.

ثنى الحاج مراد ردنَيْ قفطانه على ذراعيه المفتولين الأبيضين أعلى من رسغيه ومدّ يديه تحت خطّ الماء البارد الشفّاف الذي أخذ

---

(1) الشيشبرك: كريّات من العجين محشوّة، باللحم والبصل غالباً، تؤكل مسلوقة أو باللَّبن. (م)

سادو يصبّه من الإبريق، ثم نشّف يديه بمنشفة خشنة نظيفة وجلس إلى المائدة. وحذا إلدار حذوه. وبينما كان الضيفان يتناولان الطعام، كان سادو جالساً قبالتهما وشكرهما على الزيارة عدة مرات. كان الفتى الجالس عند الباب يبتسم، من دون أن يحوّل عينيه عن الحاج مراد، كأنما يؤكّد كلام والده بابتسامته.

ورغم أن الحاج مراد لم يكن قد أكل شيئاً منذ أكثر من أربعٍ وعشرين ساعة، إلا أنه لم يتناول إلا القليل من الخبز والجبن، ثم استلّ سكيناً صغيرة من تحت خنجره ودهن بواسطته قطعة خبز بشيءٍ من العسل.

قال الشيخ، وقد سرّه على ما يبدو أن الحاج مراد قد أكل من عسله:

- عسلنا جيد. عسل هذا العام أوفر وأفضل من عسل الأعوام الأخرى كلها.

قال الحاج مراد: «شكراً»، وتراجع عن المائدة.

كان إلدار يودّ تناول المزيد، إلاّ أنه تراجع عن المائدة كمرشده[1] وقرّب الإبريق والطست إلى الحاج مراد.

كان سادو يعلم أنه، باستضافته الحاج مراد، يعرّض حياته للخطر. فقد حذّر شامل، بعد الخصومة بينه وبين الحاج مراد، جميع سكّان الشيشان من استقبال الحاج مراد تحت طائلة عقوبة الموت. وكان سادو يعلم أن أهل القرية يمكنهم أن يعلموا بوجود الحاج مراد في بيته في أي لحظة، ويمكنهم أن يطالبوا بتسليمه. لكنّ هذا الأمر

(1) بالعربية في الأصل. (م)

لم يقلق سادو قطّ، بل كان سعيداً بذلك، فقد كان يعتبر أنّ من واجبه حماية ضيفه، أخيه في العهد، ولو كلّفه ذلك حياته، وكان مغتبطاً وفخوراً بنفسه كونه يسلك كما ينبغي. وأعاد قائلاً للحاج مراد:

- مادمتَ في بيتي، وطالما رأسي فوق كتفَيّ، فلن يَمسَّكَ أحد بسوء.

رنا الحاج مراد إلى عينيه المتألقتين وأيقن أنه صادق في ما يقول، فقال في شيءٍ من الابتهاج:

- أنعم الله عليك بالسعادة والعمر المديد.

وضع سادو يده على قلبه في صمت إشارةً إلى الامتنان على الكلمات الطيبة.

أغلق سادو درفات نوافذ الغرفة، وأوقد العيدان في موقد الحطب، ثم غادر الغرفة، وهو في منتهى البهجة والنشاط، متوجّهاً إلى القسم الذي تعيش فيه أسرته من الدار. لم تكن النساء قد نمن بعد وكنّ يتحدثن عن الضيفين الخطيرين اللذين يمضيان الليلة في المضافة.

- 2 -

في تلك الليلة نفسها خرج ثلاثة جنود وضابط صف من التحصينات الواقعة وراء بوابة «شاهغير» لحصن «فوزدفيجنسك» الذي يبعد خمس عشرة «فِرْستاً»[1] عن القرية التي قضى فيها الحاج مراد ليلته. كان الجنود يعتمرون طاقيات من الفراء ويرتدون سترات من الصوف، وقد تلفّعوا بمعاطف مسدلة على أكتافهم، وينتعلون جزمات طويلة السيقان تعلو ركبهم، وهو الزيّ الذي كان يرتديه الجنود القوزاق آنذاك. سار الجنود في البداية نحو خمسمئة خطوة وأسلحتهم على أكتافهم، ثم انعطفوا، مخشخشين بجزماتهم على أوراق الشجر الجافة. ساروا عشرين خطوة إلى اليمين، ثم توقّفوا عند شجرة دلب متكسّرة كان جذعها الأسود مرئياً حتى في الظلام. وقد جرت العادة أن تُرسَل دورية استطلاع إلى حيث شجرة الدلب هذه لترابط كمخفر أمامي.

النجوم الساطعة، التي بدت كأنها تجري فوق قمم الأشجار بينما كان الجنود يسيرون في الغابة، توقفت الآن متلألئةً بسطوع عبر أغصان الأشجار العارية.

---

(1) فرست: واحدة روسية لقياس المسافة تعادل 1060 متراً. (م)

«الحمد لله، إنها جافة»، قال ضابط الصف بانوف وهو يُنزل عن كتفه بندقيته الطويلة مع الحربة ويسندها إلى جذع الشجرة في قعقعة. وحذا الجنود الثلاثة حذوه.

غمغم بانوف حانقاً: لكنه كان معي. ربما أضعته، أو نسيته، أو لعله سقط مني في الطريق.

سأله أحد الجنود بصوتٍ حيويٍّ مرح: عمّ تبحث، هه؟

- عن مبسم غليوني، الله أعلم أين اختفى!

سأل الصوت الحيويّ: وهل الشُبُق[1] سليم؟

- الشُبُق... ها هو.

- أنجلس وندخن على الأرض المنبسطة مباشرةً؟

- لكن المكان غير مناسب.

- سنُهيّئه حالاً.

كان التدخين في الكمين ممنوعاً، لكنه بالكاد كان كميناً، فهو أقرب إلى أن يكون مخفراً أمامياً أُقيم هناك لمنع الجبليين من جلب مدفع خفيةً، كما كانوا يفعلون من قبل، وإطلاق النار على التحصينات. كما أن بانوف لم يعتبر حرمان نفسه من التدخين ضرورياً، لذا وافق على اقتراح الجندي المرح. فأخرج الجندي المرح من جيبه سكيناً صغيرة وأخذ يحفر في الأرض، وبعد أن حفر حفرةً صغيرة سوّاها ثم ثبّت مبسم الغليون فيها ووضع التبغ في التجويف وضغطه،

(1) الشُبُق أو الشبوق (كلمة تركية الأصل): رأس الغليون حيث يوضع التبغ. (م)

وهكذا صار الغليون جاهزاً. اشتعل عود الكبريت مضيئاً للحظة وجه الجندي الراقد على بطنه البارز القسمات. صدر صفير من الغليون واشتمّ بانوف رائحة التبغ المفروم المحترق الزكية، فقال وهو ينهض واقفاً على قدميه:

- هل سوّيتَ الأمر؟

- وكيف إذن.

- ما أشطرك يا أفدييف! تكاد تكون بذكاء مدّعٍ عام شاب. دعني أجرّب.

انقلب أفدييف على جنبه مفسحاً المجال لبانوف وكان ينفث الدخان من فمه.

انبطح بانوف على بطنه ثم مسح المبسم وأخذ يدخّن.

بعد أن فرغ الجنود من التدخين شرعوا يتحدثون، فقال أحد الجنود بصوتٍ خامل:

- يُقال إن قائد السرية قد مدّ يده إلى صندوق المال ثانيةً. لقد خسر في القمار كالعادة.

قال بانوف: «سيردّها»، فأمّن أفدييف على ذلك: «من المعروف أنه ضابط جيد»، فواصل الجندي الذي افتتح الحديث قائلاً: «حسناً، حسناً، لكنّي أرى أنّ على السَرية أن تقول له: إن كنت قد أخذت مالاً فاخبرنا كم المبلغ ومتى ستردّه»، فقال بانوف منتزعاً نفسه عن الغليون: «لندع القرار للسَرية»، فأكّد أفدييف: «إنه لأمرٌ معروف أنّ العالَم رجلٌ كبير».

- لكن يلزم شراء الشوفان، كما تعلمون، ويجب شراء الأحذية في مطلع الربيع، والمال ضروري. أما وقد استولى عليه...

كرّر بانوف:

- قلت لنترك الأمر للسرية. إنها ليست المرة الأولى: يأخذ ويردّ.

في تلك الأيام كانت كل سرية في القوقاز تدير شؤونها المعيشية بنفسها عبر أشخاص تختارهم، وكانت كلُّ سرية تتلقّى من الخزينة ستة روبلات وخمسين كوبيكاً وتموّن نفسها بنفسها، فكانت تزرع الكرنب وتحشّ الدريس، وتمتلك عرباتها الخاصة، وتدلّل نفسها بجيادها الشبعة. وكانت السرية تحتفظ بمالها في صندوق مفتاحه في حوزة قائد السرية، وكان يحدث كثيراً أن يقترض قائد السرية من الصندوق. هكذا كانت الحال، وهو ما كان الجنود يتحدثون عنه الآن. كان الجندي المتجهّم نيكيتين يطالب بأن يقدّم قائد السرية كشفاً بالحسابات، في حين كان بانوف وأفدييف يريان أن لا ضرورة لذلك.

بعد بانوف، دخّن نيكيتين أيضاً، ثم بسط معطفه على الأرض وجلس سانداً ظهره إلى جذع الشجرة. لاذ الجنود بالصمت، ولم يعد يُسمع سوى خشخشة قمم الأشجار التي تهزّها الريح في الأعلى فوق رؤوسهم. وفجأةً بدأ يُسمع، خلل هذا الحفيف الخافت المتواصل، عواء وزعيق وعويل وقهقهة بنات آوى.

قال أفدييف: «اسمعوا كيف تقهقه تلك المخلوقات الملعونة»، فقال الجندي الرابع بصوتٍ رفيع: «إنها تضحك منك بسبب وجهك الأعوج». وران الصمت ثانيةً، إلّا من صوت الريح وهي تحرّك أغصان الأشجار كاشفةً عن النجوم تارةً وحاجبةً إياها تارةً أخرى.

فجأةً سأل أفدييف المرح بانوف: قل لي يا أنطونيتش، أيخامرك الحنين أحياناً؟

أجاب بانوف دونما رغبة: أيّ حنينٍ هذا؟

- أما أنا فقد استبدّ بي الحنين ذات مرة بحيث لم أعد أدري ماذا أفعل بنفسي.

- حقاً! قال بانوف.

- وحينها شربت بالمال الذي كان معي، وهذا كله بسبب الحنين. استولى عليّ الحنين حتى استبدّ بي، فقلت لنفسي: لأشربنّ حتى الثمالة.

- لكنّ الخمر يزيد الأمر سوءاً أحياناً.

- وهو ما حدث. لكن ما العمل؟

- لكن إلامَ تحنّ؟

- أنا؟ أحنّ إلى البيت.

- مفهوم... هل كنتم أغنياء؟

- ليس تماماً، لكنّ أحوالنا كانت ميسورة. وكانت معيشتنا طيبة.

وراح أفدييف يروي لبانوف ما رواه له مرات كثيرة، فقال:

- لقد التحقت بالجيش بمحض إرادتي بدلاً من أخي، فله

خمسة أبناء! أما أنا فكانوا قد زوّجوني للتو. وراحت أمي ترجوني، فقلت في نفسي: «وما المانع! عسى أن يذكروا فضلي»، فذهبت إلى المالك صاحب الأرض، وهو سيّدٌ طيب، فقال: «أحسنت! اذهب»، وهكذا حللت محل أخي.

فقال بانوف: هذا جيد طبعاً.

- ولكن صدّقني، يا أنطونيتش، إنني أشعر بالضجر الآن. وأكثر ما يضجرني هو أنني التحقت بدلاً من أخي. وها هو الآن يعيش كالملوك، بينما أنا أعاني. وكلّما فكّرت في الأمر ساءت حالتي أكثر. من الواضح أنني أخطأت.

صمت أفدييف قليلاً ثم سأل: أندخّن ثانيةً؟

- لمَ لا. هيّئ الغليون.

لكن لم يستطع الجنود أن يدخّنوا. إذ لم يكد أفدييف ينهض واقفاً لإعداد الغليون حتى تناهى إليهم خلل حفيف الأشجار وقع أقدام على الطريق، فتناول بانوف بندقيته ولكز نيكيتين بقدمه. نهض نيكيتين واقفاً ورفع المعطف عن الأرض. ونهض الجندي الثالث أيضاً، بوندارينكو.

- يا للحلم الغريب الذي تراءى لي يا إخوان...

هشّ أفدييف على بوندارينكو، وتسمّر الجنود في أماكنهم يسترقون السمع. كان وقع أقدامٍ خفيف لأناسٍ ينتعلون أحذيةً خفيفة، لا جزمات، يقترب. كان حفيف أوراق الشجر والأغصان اليابسة يُسمع بوضوح أكثر فأكثر في الظلام، ثم سُمعت دردشة خافتة بتلك اللغة الحَلْقية المتميزة التي يتحدث بها الشيشان. كان

الجنود الآن لا يسمعون فقط، بل ويرون ظلّ شخصين يسيران في بصيص الضوء بين الأشجار، وكان أحدهما قصيراً والآخر طويلاً. ولمّا حاذى الطيفان الجنود برز لهما بانوف، والبندقية في يده، مع اثنين من رفاقه في الطريق، وصاح بهما:

- من هناك؟

قال الأقصر قامةً، وكان باتا، مشيراً إلى نفسه:

- شيشاني مسالمة. بندقية يوك، سيف يوك. أمير يريد.[1]

كان الأطول قامةً يقف إلى جوار رفيقه، وهو أيضاً لم يكن مسلّحاً.

قال بانوف شارحاً لرفاقه: إنه كشّاف[2]. إلى قائد الفوج إذن.

قال باتا: «الأمير فورنتسوف لازم كتير. شغلة كبيرة لازم»، فقال بانوف: «حسنٌ، حسنٌ، سنأخذكما إليه»، ثم التفت إلى أفدييف وأردف: «لا بأس، خذهما أنت وبوندارينكو، وبعد أن تسلّمهما إلى الضابط المناوب عد ثانيةً»، ثم أضاف: «اسمع، احرص على أن يسيرا أمامك، فعراة الجباه[3] هؤلاء ماكرون».

قال أفدييف وهو يقوم بحركة ببندقيته مع حربتها كمن يطعن شخصاً: «وما هذه؟ طعنة واحدة وتطلع الروح»، فقال بوندارينكو: «وما الجدوى منه إن طعنته... هيا، إلى الأمام سِرْ!».

(1) يتعمّد تولستوي جعل باتا الشيشاني يتكلّم بلغة روسية مكسّرة. و«يوك» بالتركية وتعني «لا يوجد». (م)
(2) الكلمة تعني أيضاً: «استطلاعي» و«عين» و«جاسوس»، حسب السياق. (م)
(3) من المعتاد أن يحلق جبليو القوقاز شعورهم كليّاً، وذلك لأنهم يعتمرون طاقيات سميكة من الفراء بسبب البرد. (م)

بعد تلاشي خطوات الجنديين والكشّافَين عاد بانوف ونيكيتين إلى موقعَيهما. قال نيكيتين: «أي شيطان حملهما إلينا ليلاً!»، فقال بانوف: «يبدو أن الأمر ضروري»، ثم أردف: «لقد برد الجو»، وبسط معطفه وارتداه وجلس مستنداً إلى شجرة.

بعد نحو ساعتين عاد أفدييف وبونداريتكو.

سأل بانوف: هل سلّمتماهما؟

- سلّمناهما. لم يكونوا قد ناموا في الفوج بعد، فاقتادوهما إليه مباشرةً.

ثم استطرد أفدييف: «يا لهما من شابين لطيفين عاريا الجبين هذان يا إخوان. نعم والله! كم تحدّثنا!»، فقال نيكيتين ساخطاً: «معلوم تحدّثت إليهما».

- إنهما مثل الروس حقاً. أحدهما متزوج. قلت: له «بار[1] يا ماروشكا؟» فقال: «بار». قلت: «بار يا بارانجوك؟» فقال: «بار». قلت: «كثيراً» فقال: «اثنتين»... على هذا النحو الرائع تحدثنا. شابان لطيفان حقاً.

قال نيكيتين: «كيف لا، لطيفان طبعاً. لكن إن وقعتَ بين يديه بمفردك فسيجعل أحشاءك تندلق». قال بانوف: «كفى، سينبلج الفجر قريباً»، فقال أفدييف وهو يهمّ بالجلوس: «أجل، فقد بدأت النجوم تنطفئ».

وهمد الجنود من جديد.

(1) «بار» كلمة تترية وتعني «خذ»، ويبدو أن أفدييف يطلب منهما سجائر، وهو هنا يتباهى بمعرفته باللغة التترية مع أنه لا يعرف سوى كلمة «بار». (م)

- 3 -

كانت نوافذ الثكنات ومساكن الجنود قد أظلمت منذ وقتٍ بعيد، ولكن في أحد أفضل مساكن الحصن كانت النوافذ كلها لا تزال مضاءة. كان يشغل هذا المسكن قائد فرقة كورين، ابن القائد العام للجيش، الياور الإمبراطوري الأمير سيميون ميخائيلوفيتش فورنتسوف، وكان يقيم مع زوجته ماريّا فاسيليفنا، وهي حسناء شهيرة من بطرسبورغ، حيث يعيشان في الحصن القوقازي الصغير عيشةً مترفة لم يسبق لأحد أن عاشها هنا قط. وكان يبدو لفورنتسوف وزوجته، لا سيّما لزوجته، أنّ عيشتهما هنا ليست متواضعة فحسب، بل يملؤها الحرمان، في حين أنها كانت تثير دهشة السكان المحليين ببذخها وترفها.

كان أصحاب البيت الآن، في الساعة الثانية عشرة ليلاً، يجلسون مع ضيوفهم حول طاولة لعب الورق في غرفة استقبال واسعة، تغطّي البسط أرضيتها كلها وستائر ثقيلة مسدلة على نوافذها، ويلعبون الورق. كان أحد اللاعبين ربّ البيت نفسه، قائد الفرقة الأشقر المستطيل الوجه، مع نياشين وشرائط الياورية، فورنتسوف، وكان

شريكه في اللعب مرشّح[1] في جامعة بطرسبورغ، استدعته الأميرة فورنتسوفا منذ وقتٍ قريب كمدرِّس لابنها الصغير من زوجها الأول، وكان شاباً أشعث الشعر كئيب المنظر. وكان يلعب ضدهما ضابطان: أحدهما كان قائد السرية، العريض الوجه، المورّد الخدين، القادم من فرقة الحرس الإمبراطوري، بولتوراتسكي[2]، والآخر كان ياور الفرقة، وكان يجلس باستقامة شديدة ويعلو وجهه الوسيم تعبيرٌ فاتر. أما الأميرة ماريا فاسيليفنا، الحسناء الواسعة العينين السوداء الحاجبين، فكانت تجلس بجوار بولتوراتسكي وهي تلمس قدمه بتنّورتها وتنظر إلى ورقه، وكان في أقوالها ونظراتها وابتسامتها، وفي كل حركات جسدها، وفي العطور التي تفوح منها، ما جعل بولتوراتسكي يذهل عن كل شيء ما عدا قربها منه، وراح يرتكب الخطأ تلو الخطأ مُغيظاً شريكه أكثر فأكثر.

قال الياور الذي احمرّ كله من الغيظ حين رمى بولتوراتسكي ورقة «الآص»: «لا، غير معقول! مرة أخرى حرقت الآص».

رنا بولتوراتسكي، الذي ثاب إلى رشده للتو، إلى الياور الساخط بعينيه السوداوين الواسعتين الطيبتين ولا يدري ما جرى. فقالت ماريا فاسيليفنا باسمةً: «لا بأس، سامحه. أرأيت، لقد قلت لك»، فقال بولتوراتسكي وهو يبتسم: «لكنكِ قلتِ شيئاً مغايراً تماماً»، فقالت مبتسمةً بدورها: «ألم أقل ذلك يا ترى؟».

هيّجت هذه الابتسامة الجوابية بولتوراتسكي وأفرحته بشكل

(1) المرشّح في الجامعات الروسية مرتبة علمية تلي الماجستير وتسبق الدكتوراه. (م)

(2) فلاديمير ألكسيفيتش بولتوراتسكي (1828–1889): ملازم ثانٍ، قائد كتيبة كورين، أصبح جنرالاً فيما بعد. وقد استعان تولستوي بـ«مذكّراته» عند كتابة «الحاج مراد». (المحرّر)

رهيب بحيث احمرّ حتى صار قرمزي اللون، فالتقط ورق اللعب وراح يخلطه.

قال الياور في صرامة: «ليس دورك في توزيع الورق» وأخذ يوزّع الورق بيده البيضاء التي فيها خاتم كمن يريد التخلّص من هذا العمل في أسرع وقت ممكن.

دخل البواب غرفة الاستقبال وقال إن الضابط المناوب يطلب الأمير، فقال فورنتسوف بالروسية بلكنة إنكليزية:

- اعذروني يا سادة. حلّي مكاني Marie

- موافقون؟ سألت الأميرة، ونهضت بسرعة ورشاقة بكامل قامتها الفارعة، محفحفةً بثوبها الحرير ومبتسمةً ابتسامتها المشرقة التي تميّز المرأة السعيدة.

قال الياور وقد أسعده كثيراً أن يلعب ضد الأميرة التي لا تجيد اللعب مطلقاً: «أنا أوافق على كل شيء دائماً»، في حين اكتفى بولتوراتسكي بأن بسط يديه وهو يبتسم.

حين عاد الأمير إلى غرفة الاستقبال كانت اللعبة قد انتهت، وقد دخل وهو في منتهى المرح والإثارة.

- أتدرون ماذا سأقترح عليكم؟

- ماذا؟

- فلنشرب شمبانيا.

- إنني مستعد لذلك دائماً، - قال بولتوراتسكي.

- لِمَ لا، هذا رائع جداً، - قال الياور.

- قدِّم الشمبانيا يا فاسيلي، - قال الأمير.

- لِمَ استدعوك؟ سألته ماريا فاسيليفنا.

- كان الضابط المناوب ومعه شخص آخر.

- من؟ ماذا؟ سألت ماريا فاسيليفنا في لهفة.

قال فورنتسوف هازّاً كتفيه: «لا يمكنني القول»، فقالت ماريا فاسيليفنا مكررةً: «لا يمكنك القول! سنرى».

أُحضرت الشمبانيا، واحتسى كلٌّ من الضيوف كأساً، ثم أنهوا اللعب وأخذوا يودّعون بعضهم بعضاً.

سأل الأمير بولتوراتسكي: هل سريتك هي التي سترابط في الغابة غداً؟

- أجل سريتي. ماذا هناك؟

فقال الأمير مبتسماً ابتسامةً خفيفة: «نلتقي وإياكم غداً إذن»، فقال بولتوراتسكي من دون أن يفهم جيداً ما قاله فورنتسوف: «هذا يسعدني»، وكان الأمر الوحيد الذي يشغل باله هو كيف سيصافح بقوة الآن يد ماريا فاسيليفنا البيضاء.

ماريا فاسيليفنا، كحالها دائماً، لم تصافح يد بولتوراتسكي بقوة فحسب بل وهزّتها بشدّة أيضاً، وبعد أن ذكّرته بالخطأ الذي ارتكبه حين رمى ورقة «الديناري» ابتسمت له ابتسامةً رائعة ولطيفة وذات مغزى، كما بدا لبولتوراتسكي.

***

مضى بولتوراتسكي إلى مسكنه بذاك المزاج المغتبط المتحمّس

الذي لا يفهمه إلا الذين ترعرعوا وتربّوا في عالم عليّة القوم، وذلك حين يلتقون من جديد امرأةً من وسطهم السابق بعد أشهر من عزلة الحياة العسكرية، وليس أيّ امرأة بل امرأة مثل الأميرة فورنتسوفا. وعندما بلغ المسكن، الذي يقيم فيه مع أحد رفاقه، دفع الباب الخارجي، لكنه كان مقفلاً، فانزعج وأخذ يطرق الباب بقوة بقدمه وسيفه. سُمع وقع خطوات خلف الباب، وأزال فافيلو، خادم بولتوراتسكي، الرتاج.

- ما الذي دفعك إلى إقفال الباب أيها الأبله؟!

- وهل يُعقل يا ألكسي فلاديمير...

- سكران ثانيةً! سأريك الآن كيف يُعقل...

وهمّ بولتوراتسكي بضرب فافيلو، لكنه تمالك نفسه.

- عليك اللعنة. أشعل شمعة.

- حالاً.

كان فافيلو ثملاً فعلاً، وقد شرب لأنه كان عند أمين المستودع الذي كان يحتفل بعيد شفيعه. وأثناء عودته إلى البيت راح يفكّر في حياته مقارنةً بحياة أمين المستودع إيفان ماكييتش. كانت لإيفان ماكييتش موارد مالية، وكان متزوجاً ويأمل أن يُحال على المعاش بعد سنة. أما فافيلو فقد أُخذ إلى أعلى، أي لخدمة السادة، عندما كان لا يزال ولداً، وها هو قد جاوز الأربعين ومع ذلك لم يتزوج بعد ويعيش حياةً غير مستقرة في ظلّ سيده الفوضوي. لقد كان سيده شخصاً طيباً، قلّما يتشاجر معه، ولكن أي حياة هذه! قال فافيلو في سرّه: «لقد وعد بتسريحي بعد العودة من القوقاز. لكن أين سأذهب

بعد تسريحي. إنها حياة الكلاب!». وكانت به رغبة شديدة في النوم، ولخشيته أن يدخل أحدهم ويسرق شيئاً أقفل الباب بالرتاج وغفا.

دخل بولتوراتسكي الغرفة التي كان ينام فيه ورفيقه تيخونوف.

قال تيخونوف الذي استيقظ: ماذا، هل خسرت؟

- آه لا، ربحت سبعة عشر روبلاً، وشربنا قنينة معاً.

- وتمتّعتَ بمرأى ماريا فاسيليفنا؟

- وتمتّعتُ بمرأى ماريا فاسيليفنا، كرّر بولتوراتسكي.

قال تيخونوف: يجب النهوض قريباً، إذ علينا الانطلاق في السادسة.

صاح بولتوراتسكي: فافيلو، اسمع، أيقظني كما ينبغي في الخامسة صباحاً.

- كيف أوقظك وأنت توبّخني وتشتمني.

- أقول لك أن توقظني. أسمعتني؟

- حاضر.

وخرج فافيلو حاملاً جزمة بولتوراتسكي وثوبه.

اضطجع بولتوراتسكي في الفراش، وأطفأ الشمعة، وأخذ يدخّن لفافة تبغ وهو يبتسم. وفي العتمة رأى أمامه وجه ماريا فاسيليفنا الباسم.

***

آل فورنتسوف أيضاً لم يناموا على الفور. فبعد مغادرة الضيوف دنت ماريا فاسيليفنا من زوجها ووقفت أمامه وقالت في صرامة:

— Eh bien, vous aller me dire ce que c'est?

— Mais, ma chère...

— Pas de «ma chère»! C'est un émissaire, n'est-ce pas?

— Quand même je ne puis pas vous le dire.

— Vous ne pouvez pas? Alors c'est moi qui vais vous le dire!

— Vous?[1]

- إنه الحاج مراد، أليس كذلك؟ - قالت الأميرة التي كانت قد سمعت منذ عدة أيام عن مفاوضات تجري مع الحاج مراد، وافترضت أن الحاج مراد نفسه قد حضر للقاء زوجها.

لم يستطع فورنتسوف أن ينكر ذلك، لكنه خيّب أمل زوجته بقوله إن القادم لم يكن الحاج مراد نفسه، بل كشّاف أعلن أنّ الحاج مراد سيأتي إليه غداً في المكان المخصّص للاحتطاب في الغابة.

في خضمّ حياة الحصن الرتيبة كان الفورنتسوفان الشابان - الزوج والزوجة - سعيدين جداً بهذا الحادث. وبعد أن تحدّثا عن الفرح الذي سيجلبه هذا الخبر لأبيه أخلد الزوج والزوجة إلى النوم في الساعة الثالثة صباحاً.

(1) - هل ستخبرني إذن ما الأمر؟
- لكن يا عزيزتي...
- ما شأن «عزيزتي» هنا! إنه كشّاف طبعاً؟
- ولكني لا أستطيع أن أخبرك.
- لا تستطيع؟ سأخبرك أنا إذن!
- أنتِ؟ (بالفرنسية في الأصل)

- 4 -

بعد تلك الليالي الثلاث التي لم يذق فيها طعم النوم، هارباً من المريدين الذين أرسلهم شامل لمطاردته، غفا الحاج مراد فور خروج سادو من الغرفة متمنياً له ليلةً هانئة. نام من دون أن يخلع ملابسه، مسنداً رأسه إلى يده، وقد غاص مرفقه في وسائد الريش الحمراء التي نضّدها له ربّ البيت. ونام إلدار عند الجدار، غير بعيدٍ عنه. كان إلدار راقداً على ظهره، وقد مدّ أطرافه الفتية القوية، بحيث أن صدره العالي مع جعبتي الخراطيش على سترته الشركسية البيضاء كان أعلى من رأسه الأزرق، الحليق حديثاً، المتدحرج عن الوسادة، وكانت شفته العليا الممطوطة، كشفاه الأطفال، التي يعلوها القليل من الزغب، تنضغط وترتخي كأنما يلوك شيئاً. وقد نام، مثل الحاج مراد، في ملابسه ومتمنطقاً بمسدسه وخنجره. كانت العيدان في الموقد قد احترقت حتى كادت تخمد، وكان السراج في المشكاة يصدر وميضاً خفيفاً.

في منتصف الليل صرّ باب المضافة، فنهض الحاج مراد على الفور وتناول مسدسه. دخل سادو الغرفة وهو يخطو وئيداً على الأرضية الطينية.

سأله الحاج مراد بصوتٍ منتعشٍ يقظ كأنه لم ينم قط: ماذا هناك؟

جلس سادو القرفصاء قبالة الحاج مراد وقال:

- يجب أن نفكّر. لقد رأتك امرأة قادماً من سطح بيتها وأخبرت زوجها، والقرية كلها تعلم الآن. وقد هرعت جارتنا إلى زوجتي الآن وأخبرتها أن الشيوخ قد احتشدوا في المسجد ويريدون اعتقالك.

قال الحاج مراد: «يجب أن أغادر»، فقال سادو: «الخيول جاهزة» وخرج من الدار مسرعاً.

«إلدار»، همس الحاج مراد، وإلدار، الذي سمع اسمه والأهم صوت مرشده، وثب واقفاً على قدميه القويتين، وهو يعدّل طاقيته.

تمنطق الحاج مراد بسلاحه فوق بردته، وكذلك فعل إلدار، وخرج كلاهما في صمت من البيت إلى حيث سقيفة البوابة. أحضر الصبي الأسود العينين فرسَيْهما. أطلّ أحدهم برأسه من باب المنزل المجاور على قرقعة الحوافر على الطريق المرصوف، وهرع شخصٌ ما صاعداً التل إلى المسجد وهو يقرقع بقبقابه الخشبي.

كان القمر غائباً، لكن النجوم كانت تتألق ساطعةً في السماء القاتمة، وكانت أسطح البيوت تُرى في الظلام، وكان المسجد بمأذنته يعلو البيوت الأخرى في القسم المرتفع من القرية. ومن المسجد كانت تتناهى همهمة أصوات.

التقط الحاج مراد بندقيته بسرعة، ودسّ قدمه في الرِكاب الضيق، ورفع بدنه من دون صوت وعلى نحوٍ غير ملحوظ، وامتطى وسادة السرج العالية بشكل غير مسموع.

«جزاك الله خيراً!»، قال مخاطباً مضيفه وهو يتلمّس الركاب

الآخر بقدمه اليمنى بحركةٍ مألوفة، ومسّ بسوطه الغلام الممسك بلجام فرسه مسّاً رقيقاً لكي يفلت اللجام ويتنحّى جانباً. تنحّى الصبي جانباً، وانطلقت الفرس خبباً من الزقاق إلى الطريق الرئيسي كأنها تعرف من تلقاء نفسها ماذا عليها أن تفعل. تبعه إلدار على فرسه، ولحق بهما سادو، في معطفه الفرو، ملوِّحاً بذراعيه بسرعة، وهو يركض تقريباً على جانب الطريق الضيق هذا تارةً وعلى ذاك أخرى. عند نهاية الزقاق المفضي إلى الطريق لاح ظلٌّ متحرك، ثم آخر.

صاح صوت: «قف! من هناك؟ توقّف!»، واعترض بعض الرجال الطريق، ولكن بدلاً من أن يتوقّف استلّ الحاج مراد مسدسه من حزامه وزاد من سرعته ووجّه الفرس مباشرةً نحو الرجال الذي اعترضوا الطريق، فتفرقوا. ومن دون أن يتلفّت حوله أخذ الحاج مراد يهبط الطريق في خببٍ سريع. وتبعه إلدار منطلقاً بسرعة. دوّت طلقتان في الخلف، وصفرت رصاصتان، لكنهما لم تصيباه، ولا أصابتا إلدار. واظب الحاج مراد على سرعته، وبعد أن قطع قرابة ثلاثمئة خطوة أوقف فرسه اللاهثة بعض الشيء وراح يصيخ السمع. إلى الأمام، في الأسفل، كانت تهدر مياه سريعة الجريان، وفي الخلف كان يُسمع صياح الديكة في القرية، وخلل هذه الأصوات كان الحاج مراد يسمع وقع حوافر خيل وهمهمات تقترب من الخلف. لكز الحاج مراد فرسه وأخذ يعدو عدواً منتظماً.

سرعان ما أدرك الفرسان الذين كانوا يرمحون بخيولهم الحاج مراد. كانوا قرابة عشرين فارساً، وكانوا من أهل القرية الذين قرروا القبض على الحاج مراد أو على الأقل التظاهر بذلك لتبييض

صفحتهم أمام شامل. ولمّا دنوا بحيث باتوا مرئيين في الظلام توقّف الحاج مراد، وأفلت العنان من يده، وفكّ قراب بندقيته بيده اليسرى بحركة معتادة، وسحب البندقية بيده اليمنى. وكذلك فعل إلدار.

صاح فيهم الحاج مراد: «ماذا تريدون؟ أتريدون أخذي؟ خذوا إذن!» ورفع بندقيته، فتوقّف رجال القرية.

شرع الحاج مراد ينزل المنحدر والبندقية في يده. تبعه الفرسان دون أن يقتربوا أكثر. ولمّا بلغ الحاج مراد الجانب الآخر للوادي صاح به متعقّبوه من الفرسان كي يستمع إلى ما يريدون قوله. ردّاً على ذلك أطلق الحاج مراد طلقةً من بندقيته وأرخى العنان لفرسه. وحين توقّف ثانيةً لم يعد يسمع أصوات مطارديه، ولا صياح الديكة، وكان خرير الماء في الغابة فقط يُسمع بوضوح أكثر، وكذلك نعيب بومة كبيرة من حين إلى آخر. كان جدار الغابة الأسود قريباً جداً. إنها الغابة نفسها التي ينتظره فيها مريده، ولمّا بلغ الحاج مراد الغابة شهق بعمق، مالئاً رئتيه بالهواء، وصفر، ثم صمت مصيخاً السمع.

بعد دقيقة تردّد صفيرٌ مماثل من الغابة، فانعطف الحاج مراد عن الطريق ودخل الغابة، وبعد نحو مئة خطوة لمح ناراً بين جذوع الأشجار وظلالَ أناسٍ جالسين حول النار وفرساً مسرجة مربوطة تضيء النار نصفها.

نهض أحد الرجال الجالسين حول النار بسرعة وتوجّه نحو الحاج مراد وأمسك بعنان الفرس وبالركاب. كان هذا حنيفي الأفاري[1]، أخ الحاج مراد في العهد والقائم بتدبير شؤونه المعيشية.

(1) نسبةً إلى الشعب الأفارية، وهو يشكّل القومية الأكبر بين سكان وسط داغستان. ينتمي إليها الكاتب المعروف رسول حمزاتوف. (م)

قال الحاج مراد وهو يترجّل عن فرسه: «أطفئوا النار»، فأخذ الرجال يبعثرون الأغصان المشتعلة ويطأونها بأقدامهم.

سأل الحاج مراد وهو يخطو نحو معطفٍ من اللبّاد بُسط على الأرض:

- هل كان باتا هنا؟

- أجل، وقد غادر مع خان محمه منذ وقتٍ طويل.

- أي طريق سلكا؟

أجاب حنيفي وهو يشير إلى الجهة المعاكسة للجهة التي قدم منها الحاج مراد: «تلك»، فقال الحاج مراد: «حسناً»، ونزع عنه بندقيته وراح يحشوها، ثم قال مخاطباً الرجل الذي كان يخمد النار: «يجب توخّي الحيطة، فقد تعقّبوني».

كان الرجل شيشانياً اسمه حمزالو[1]. دنا حمزالو من معطف اللبّاد وأخذ بندقيةً في قرابها ومضى صامتاً إلى طرف المرج، إلى الجهة التي قدم منها الحاج مراد. ترجّل إلدار عن فرسه، وأخذ فرس الحاج مراد أيضاً، وربط الفرسين إلى شجرتين، رافعاً رأسيهما عالياً، ثم تنكّب بندقيةً، كما فعل حمزالو، وتوجّه إلى الطرف الآخر للمرج. كانت النار قد أُطفئت، ولم تعد الغابة تبدو كالحة السواد، كما كانت من قبل، وكانت النجوم تلمع في السماء، وإن في وهن.

رنا الحاج مراد إلى السماء فرأى عنقود الثريا قد علا حتى توسّط السماء، فقدّر أنّ الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير وأنّ موعد صلاة العشاء قد انقضى منذ وقتٍ طويل، فطلب من حنيفي إبريقاً،

(١) اللفظ المحلي لـ«الحمد لله»، أو «حمدالله»، حيث تُلفظ الدال زاياً، والألف واواً مخفّفة. (م)

يحملونه مع أمتعتهم دائماً، وارتدى فروة اللبّاد، وتوجّه إلى حيث الماء.

خلع الحاج مراد حذاءه وتوضّأ، ثم انتصب واقفاً على فروة اللبّاد حافي القدمين. رفع صوته بالتكبير، وأغلق أذنيه بأصابعه وأغمض عينيه، وتلا الصلاة المعتادة متوجّهاً نحو الشرق[1]. وبعد أن فرغ من الصلاة عاد إلى مكانه، حيث كانت أكياس الأمتعة، وجلس على فروة اللبّاد، مسنداً يديه إلى ركبتيه ومطأطئاً رأسه، واستغرق في التفكير.

كان الحاج مراد يؤمن دائماً بحسن طالعه، وعندما يقبل على أمر فإنه يكون شديد الثقة بالنجاح مسبقاً، وكان التوفيق يحالفه في كل شيء. هكذا كانت الحال دائماً طوال حياته الحربية العاصفة، ما عدا استثناءات نادرة، وكان يأمل أن يحالفه التوفيق الآن أيضاً. كان يتخيّل كيف سيزحف، مع القوات التي سيزوّده بها فورنتسوف، على شامل، فيأسره وينتقم منه، وكيف سيكافئه القيصر الروسي، فيحكم مرةً أخرى ليس آفاريا وحدها بل ستخضع له الشيشان كلها. وغفا على أفكاره هذه من دون أن يشعر.

رأى في المنام كيف ينقضّ هو ورجاله الشجعان على شامل وزوجاته. رجاله ينشدون ويهتفون «الحاج مراد قادم»، وهو يسمع نواح زوجات شامل وعويلهن. أفاق من النوم. هتافات «لا إله إلا الله» و«الحاج مراد قادم»، وبكاء زوجات شامل... هذا كله لم يكن سوى عواء بنات آوى وقهقهاتها، وهو ما أيقظه من النوم. رفع الحاج مراد رأسه، ورنا من خلال الأشجار إلى السماء ناحية الشرق حيث

(1) في روسيا يسمّون منطقتنا «الشرق الأدنى»، لذا لم يقل تولستوي «الجنوب» حيث القبلة وإنما قال الشرق. (م)

أخذ الفجر ينبلج، وسأل المريد الجالس على مبعدة عن خان محمه، ولمّا علم أنه لم يرجع بعد أرخى رأسه وغفا على الفور ثانيةً.

أيقظه صوت خان محمه المرح، العائد مع باتا من مهمتهما. جلس خان محمه في الحال إلى جوار الحاج مراد وراح يخبره كيف لاقاهما الجنود وقادوهما إلى الأمير نفسه، وكم فرح الأمير ووعدهم أن يلتقيهم صباحاً حيث يحتطب الروس الغابة في ما وراء «ميتشيك» في مرج «شالين». قطع باتا حديث رفيقه، مضيفاً تفاصيل أخرى.

استفسر الحاج مراد بالتفصيل عن الكلمات التي استخدمها فورنتسوف بالتحديد في ردّه على اقتراحه بالذهاب[1] إلى الروس، فقال باتا وخان محمه بصوتٍ واحد إن الأمير وعد باستقباله كضيف وأنه سيفعل ما في صالحه. سأل الحاج مراد عن الطريق، وحين أكّد له خان محمه أنه بات يعرف الطريق جيداً وأنه سيقوده إلى هناك مباشرةً أخرج الحاج مراد مالاً وأعطى باتا الروبلات الثلاثة التي وعده بها، ثم أمر رجاله أن يُخرجوا من الخرج أسلحته المرصّعة بالذهب وطاقية الفرو وعمامته، وأن ينظّف المريدون أنفسهم للذهاب إلى الروس في مظهرٍ حسن. وريثما نظّفوا الأسلحة والسروج والخيول وعُددها كانت النجوم قد انطفأت، وانبلج الفجر تماماً، وهبّ نسيم الصباح.

(1) يستخدم تولستوي عبارة «الخروج إلى الروس»، وهي تعني «الانتقال إلى صف الروس»، وتتضمن معنى «الاستسلام» أيضاً. لذا ترجمناها في المواضع التي وردت بما يتناسب والسياق. (م)

- 5 -

في الصباح الباكر، قبل انقشاع الظلام، مضت سريتان مع الفؤوس، بقيادة بولتوراتسكي، إلى مسافة تبعد عشرة فرستات عن بوابة «شاهغير»، وما إن بدأ ضوء النهار يطلع، وبعد نشر صفٍّ من الرماة، أخذ الجنود يحتطبون أشجار الغابة. وعند الساعة الثامنة بدأ الضباب، المتداخل مع الدخان الخانق للأغصان الندية التي كانت تهسهس وتطقطق في النيران، يرتقي عالياً. والحطّابون، الذين لم يكونوا من قبل يرون أبعد من خمس خطوات، وكانوا فقط يسمعون أصوات بعضهم بعضاً، بدأوا يرون النيران وكذلك الطريق المسدودة بالأشجار المقطوعة التي تخترق الغابة، وكانت الشمس تلوح كبقعةٍ مضيئة في الضباب تارةً، وتحتجب تارةً. وفي المرج، على مبعدة عن الطريق، كان يجلس على جذامير الأشجار المقطوعة الشبيهة بالطبول بولتوراتسكي مع الملازم في سريته تيخونوف وضابطان من السرية الثالثة وضابط الخيّالة السابق المجرّد من رتبته بسبب مبارزة، رفيق بولتوراتسكي في فيلق پاژسكي، البارون فريزيه. وحول أرومات الأشجار تناثرت قطع من الورق كانت قد لُفّت فيها «مازات» وأعقاب سجائر وزجاجات فارغة. كان الضباط يحتسون

الفودكا ويتناولون «المازة» ويشربون جعة «بورتر». كان ضارب الطبل ينزع سدادة القنينة الثامنة. ورغم أن بولتوراتسكي لم يكن قد نال قسطاً كافياً من النوم إلا أنه كان في ذلك المزاج المتميز للروح المعنوية العالية، والبهجة الطيبة خليّة البال، وهو ما يشعر به دوماً عندما يكون وسط جنوده ورفاقه هناك، حيث قد يكون ثمة خطر.

كان يجري حديثٌ محموم بين الضباط عن آخر الأنباء، وكان الحديث يتعلق بموت الجنرال سلِبتسوف. لم يكن أحد منهم يرى أن هذا الموت هو اللحظة الأكثر أهميةً في حياة الإنسان - منتهاها وعودتها إلى المصدر الذي انبثقت منه، ولم يكونوا يرون فيه سوى بسالة ضابطٍ مقدام انقضّ على الجبليين وراح يجندلهم في يأس. ورغم أن الجميع، لا سيما الضباط الذين كانوا على رأس عملهم، كانوا يعلمون، وكان في مقدورهم أن يعلموا، أنّ في الحرب في القوقاز آنذاك، بل وفي أي زمانٍ ومكانٍ آخر، لا يحدث أبداً ذلك القتال بالسلاح الأبيض الذي يُعتقَد ويوصَف (وإن صادف وحدث طِعانٌ كهذا بالسيوف والحراب، فلا يُطعَن أبداً سوى الفارين من ساحة القتال)، وكان الضباط يقرّون بخرافة القتال بالسلاح الأبيض التي تمنحهم زهوّاً مطمئناً والمرح الذي يجلسون به الآن على جذامير الأشجار المقطوعة، بعضهم بوضعيات طائشة رعناء وآخرون، على العكس، بأشدّ الوضعيات تواضعاً ورزانة، وهم يدخّنون ويشربون ويمزحون، غير عابئين بالموت الذي قد يدرك أيّاً منهم في أي لحظة، تماماً كما جرى لسلِبتسوف. وبالفعل، كأنما تأكيداً لتوقعاتهم، في خضمّ حديثهم سُمع من يسار الطريق الصوت الجريء الجميل لإطلاقة بندقية فرقعت بقوة، وانطلقت طلقة في

مكانٍ ما في الجو الضبابي، صافرةً بمرح، ودوّت مصطدمةً بشجرة. ردّت بضع طلقات قوية متوعّدة من بنادق الجنود على الطلقة غير الصديقة.

صاح بولتوراتسكي بصوتٍ مرح: «هذا على خط جبهتنا»، ثم التفت مخاطباً فريزيه: «هيا يا أخ كوستيا، إنها فرصتك. اذهب إلى السرية، فلسوف نقيم معركةً الآن! ونقدّم عرضاً».[1]

وثب البارون فريزيه، المجرّد من رتبته، على قدميه وتوجّه بخطىً واسعة باتجاه الضباب حيث كانت سريته. وجيء لبولتوراتسكي بمهره القبرديني[2] الأدهم فامتطاه، وبعد أن نظّم سريته في صفوف قادها إلى خط الجبهة، باتجاه إطلاق النار. كان خط الجبهة يقع على طرف الغابة قبالة وادٍ ضيقٍ أجرد منحدر. كانت الريح تهبّ باتجاه الغابة، ولم يكن منحدر الوادي فقط مرئياً بوضوح بل والجانب الآخر أيضاً.

حين بلغ بولتوراتسكي الخط الأمامي أطلّت الشمس عبر الضباب، وعلى الجانب الآخر من الوادي، عند الغابة الفتية التي تبتدئ هناك، كان ثمة بضعة فرسان على مسافة مئة ساجين[3]. كانوا أولئك الشيشان الذين تعقّبوا الحاجّ مراد وكانوا يريدون رؤية وصوله إلى الروس. أطلق واحدٌ منهم الرصاص صوب الخط الأمامي، وردّ عليه بضعة جنود. تراجع الشيشان، وتوقّف إطلاق النار. لكن حين وصل بولتوراتسكي مع سريته أمر بإطلاق النار، وما إن أُعطي الأمر

(1) كأنما يقول: «سنقيم حفلاً، ونقدّم عرضاً مسرحياً». (م)
(2) نسبةً إلى قَبَردينيا، وهو إقليم في القوقاز. وسكّانه يسمّى الشعب القبرديني. (م)
(3) الساجين وحدة روسية لقياس الأطوال تعادل متراً و13 سنتيمتراً. (م)

حتى ترددت عبر خط الجبهة برمّته قرقعة البنادق المرحة الطائشة بلا توقّف، مترافقةً مع دخانٍ راح يتبدّد بشكلٍ جميل. كان الجنود، المبتهجون بالتسلية، يسارعون إلى حشو بنادقهم وإطلاق الرصاصة تلو الرصاصة. وأخذ الشيشان، الذين من الجلي أنهم شعروا بالاستثارة، يطلقون النار على الجنود، الواحد تلو الآخر، وهم يرمحون على خيولهم إلى الأمام. وقد أصابت إحدى رصاصاتهم جندياً، وكان أفدييف نفسه الذي كان في الكمين الأمامي الليلة الماضية. وعندما وصل إليه رفاقه كان منبطحاً على بطنه وقد وضع كلتا يديه على الجرح في بطنه، وهو يتقلّب بحركة منتظمة.

كان أفدييف من سرية بولتوراتسكي، ولمّا رأى بولتوراتسكي عدداً من الجنود متجمهرين توجّه نحوهم راكباً وقال:

- هل أُصبت يا أخ؟ أين؟

لم يجب أفدييف.

قال جندي كان مع أفدييف:

- ما إن أخذت أحشو بندقيتي، سعادتكم، حتى سمعت «طقة» رصاصة. نظرت فإذا بندقيته تسقط من يده.

- تت، تت، فرقع بولتوراتسكي بلسانه، وأكمل: - ماذا، هل يؤلمك الجرح يا أفدييف؟

- كلا لا يؤلمني، لكنه يمنعني من المشي. لو تعطونني شيئاً من الخمر، سعادتكم.

وقد وجدوا فودكا، أي الكحول[1] الذي كان الجنود في القوقاز

(1) يقصد الكحول الطبي الصافي (السبيرتو).

يشربونه، وأحضر بانوف، وهو متجهّم بصرامة، لأفدييف مقدار غطاء إناء من الفودكا. همّ أفدييف أن يشرب لكنه أبعد الغطاء بيده في الحال وقال:

- إن نفسي تعافه. اشربه أنت.

شرب بانوف الكحول. حاول أفدييف أن ينهض، لكنه عاد وجلس ثانيةً، فبسط الجنود معطفاً على الأرض وأضجعوه عليه.

قال العريف لبولتوراتسكي: «العقيد قائد الفرقة قادم، سعادتكم»، فقال بولتوراتسكي: «حسناً، تولَّ القيادة»، ولوّح بسوطه وانطلق في خببٍ سريع لملاقاة فورنتسوف.

كان فورنتسوف ممتطياً حصانه الإنكليزي الأصيل الأصهب، يرافقه ملازم الفوج وقوزاقي ومترجم شيشاني.

سأل فورنتسوف بولتوراتسكي: ماذا يحدث عندكم؟

أجاب بولتوراتسكي: وصلت مجموعة وهاجمت جبهتنا.

- حسناً حسناً، وهل أنت من دبّر الأمر كلّه؟

أجاب بولتوراتسكي مبتسماً: ليس أنا أيها الأمير، بل تسلّلوا من تلقاء أنفسهم.

- سمعت أنهم جرحوا جندياً؟

- أجل، للأسف الشديد. إنه جندي طيب.

- وهل إصابته خطيرة؟

- يبدو أنها كذلك... في البطن.

- وأنا، أتدري إلى أين أذهب الآن؟ سأل فورنتسوف.

- كلا، لا علم لي.

- أيعقل ألاّ تحزر؟

- أجل.

- لقد خرج الحاج مراد وسيلاقينا الآن.

- **مستحيل!**

قال فورنتسوف، كابتاً ابتسامة الفرح بصعوبة: كان الرسول من قِبله أمس. يجب أن يكون بانتظاري في مرج «شالين»، لذا قم بنشر الرماة على امتداد الطريق إلى المرج ثم عُدْ إليّ. فقال بولتوراتسكي رافعاً يده إلى مستوى قبعته: «حاضر» وانطلق نحو سريته، ثم نشر سلسلةً من الرماة على جانب الطريق الأيمن، بينما أمر العريف أن يقوم بذلك على الجانب الأيسر. أما الجندي فقد حمله أربعة جنود إلى الحصن.

كان بولتوراتسكي في طريق العودة إلى حيث فورنتسوف حين رأى خلفه خيّالة يلحقون به، فتوقّف وانتظرهم. كان يتقدّم الخيّالة رجلٌ مهيب الهيئة على حصانٍ أبيض العُرف، يرتدي سترةً شركسية بيضاء، ويعتمر عمامة، ويحمل أسلحةً مرصّعةً بالذهب. كان هذا الرجل هو الحاج مراد، ولمّا أدرك بولتوراتسكي قال شيئاً باللغة التترية. رفع بولتوراتسكي حاجبيه وبسط ذراعيه في إشارة إلى أنه لم يفهم، وابتسم. ردّ الحاج مراد على ابتسامته بابتسامة أذهلت بولتوراتسكي بلطفها الطفولي، فهو لم يكن يتوقع مطلقاً أن يبدو هذا الجبليّ الرهيب على هذا النحو. فقد كان يتوقع شخصاً فظّاً غريباً كالح القسمات، في حين يمثل أمامه إنسان في منتهى البساطة،

ويبتسم له ابتسامة طيبة كهذه بحيث لم يبدُ شخصاً غير غريب فحسب، بل وصديقاً يعرفه منذ زمنٍ بعيد. ولكن كان ثمة شيء وحيد يميّزه: عيناه المتباعدتان اللتان كانتا تحدّقان بانتباه، وبنفاذ، وبطمأنينة في عيون الآخرين.

كانت حاشية الحاج مراد مؤلفة من أربعة أشخاص، وكان من ضمن هذه الحاشية خان محمه، الذي زار فورنتسوف الليلة الماضية، وكان رجلاً مدوّر الوجه، مورّد الخدين، ذا عينين سوداوين مبرقتين بلا أهداب، يتألق بملامح مغتبطة بالحياة. وكان ثمة أيضاً شخص ربع القامة كثيف الشعر كثّ الحاجبين. كان هذا الشخص هو حنيفي الأفاري المشرف على ممتلكات الحاج مراد كلها، وكان يقود فرساً نشيطة كثيرة الحركة محمّلة بأكياس ممتلئة إلى آخرها بالأمتعة. وكان ثمة شخصان مميزان بصورة خاصة بين الحاشية: أحدهما شاب وسيم نحيل الخصر، كالنساء، عريض المنكبين، ذو لحية شقراء نامية بالكاد، عيناه كعيني الحمل - وكان هذا إلدار. والآخر أحول إحدى العينين، بلا حاجبين ولا أهداب، ذو لحية صهباء مشذّبة وندبة ممتدة عبر أنفه ووجهه - وكان هذا الشيشاني حمزالو.

أشار بولتوراتسكي للحاج مراد بوصول فورنتسوف الذي لاح في الطريق، فتوجّه الحاج مراد نحوه، ولمّا دنا منه تماماً وضع يده على قلبه وقال شيئاً باللغة التترية وتوقّف. ترجم المترجم الشيشاني:

- إنه يقول: إنني أُسلّم نفسي لمشيئة القيصر الروسي وأرغب في خدمته. يقول إنه أراد ذلك منذ زمنٍ بعيد، لكن شامل كان يمنعه.

بعد أن استمع فورنتسوف إلى ما قاله المترجم مدّ يده وهي في

قفازها المصنوع من الشاموا إلى الحاج مراد. رنا الحاج مراد إلى يده، تروّى للحظة[1]، لكنه بعد ذلك صافحه بقوة وقال شيئاً آخر وهو ينظر إلى المترجم تارةً وإلى فورنتسوف تارةً أخرى.

- يقول إنه لم يرد أن يستسلم إلاّ لك، لأنك ابن السَردار[2]. وإنه يحترمك كثيراً.

أومأ فورنتسوف برأسه في إشارة إلى أنه يشكره. وقال الحاج مراد شيئاً ما، مشيراً إلى حاشيته.

- يقول إن هؤلاء الناس، مريديه، سوف يخدمون كذلك الروس مثله.

رنا فورنتسوف إليهم وأومأ لهم أيضاً برأسه.

خان محمه المرح، الأسود العينين، الذي بلا أهداب، يبدو أنه هو أيضاً قال شيئاً مضحكاً لفورنتسوف، وهو يومئ برأسه كذلك، لأن الأفاري الكثيف الشعر افترّت أسنانه الناصعة البياض عن ابتسامة. أما حمزالو فاكتفى بأن رمق فورنتسوف بنظرةٍ خاطفة بعينه الحمراء الوحيدة ثم أخذ يحدّق ثانيةً في أذنَي فرسه.

بينما كان فورنتسوف والحاج مراد في طريقهما إلى الحصن، تواكبهما الحاشية، تجمّع الجنود الذي أخلوا مواقعهم في خط الجبهة وراحوا يبدون تعليقاتهم.

قال أحدهم: كم أهلك من النفوس، الملعون، والآن سترون كم سيُنعمون عليه.

---

(1) من المتعارف عليه أن المصافحة بيد مع قفاز يدلّ على الاستهانة والعجرفة. هذا هو سبب تردّد الحاج مراد في مصافحة فورنتسوف. (م)

(2) سردار كلمة فارسية تعني القائد العام للجيش، وتستخدم حالياً في بعض مناطق الهند وأفغانستان بمعنى «شيخ القبيلة»، «كبير القوم»، «الزعيم».

- وكيف لا. فقد كان القائد الأول عند شامل. والآن ربما...

- لكن لا يمكن إنكار أنه فارس مغوار.

- أما الأصهب، ذلك الأصهب... فإنه ينظر شزراً كالوحش.

- اوخ، لا بدّ أنه كلب.

جميعهم لحظوا الأصهب بشكل خاص.

وهناك، حيث كان يجري قطع الأشجار، هرع الجنود الأقرب إلى الطريق ليتفرّجوا. صرخ فيهم الملازم، لكن فورنتسوف ردعه قائلاً:

- دعهم يتفرّجوا على صديقهم القديم.

ثم سأل الجندي الواقف على مقربة لافظاً الكلمات ببطء بلكنته الإنكليزية:

- أتعرف من هذا؟

- إطلاقاً يا صاحب السعادة.

- إنه الحاج مراد. هل سمعت به؟

- كيف لم أسمع به يا صاحب السعادة، فقد هزمناه مرات كثيرة.

- آه نعم، ونالنا منه ما يكفي كذلك.

أجاب الجندي مسروراً بأنه تمكّن من محادثة قائده: تماماً يا صاحب السعادة.

فهم الحاج مراد أنهم يتحدثون عنه فلمعت ابتسامة مرحة في عينيه.

عاد فورنتسوف إلى الحصن وقلبه مفعم بالبهجة.

- 6 -

كان فورنتسوف مسروراً لكونه تمكّن، هو تحديداً، من إغراء عدو روسيا الرئيس الأقوى شكيمةً، والثاني بعد شامل، على الاستسلام وها هو يأتي إليه. الأمر المزعج الوحيد هو أن قائد القوات في فوزدفيجنسك كان الجنرال ميللر زاكوميلسكي، وكان ينبغي أن يتم الأمر كله من خلاله، في حين أن فورنتسوف قد قام بكل شيء بنفسه، من دون أن يُبلغه بالأمر، وهو ما قد يتسبّب بمشاكل. وهذه الفكرة كانت تكدّر بهجة فورنتسوف بعض الشيء.

حين بلغ فورنتسوف بيته عَهِدَ بمريدي الحاج مراد إلى ياور الفرقة، وقاد بنفسه الحاج مراد إلى داخل بيته.

استقبلت الأميرة ماريا فاسيليفنا، مبتسمةً ومتأنقة وبرفقة ابنها الصبي الأجعد الشعر ذي الست سنوات، الحاج مراد في غرفة الاستقبال. والحاج مراد، واضعاً يده على صدره، قال في شيءٍ من الهيبة، من خلال المترجم الذي دخل معه، إنه يعتبر نفسه صديقاً للأمير، بما أنه استقبله في بيته، وأنّ عائلة الصديق كلها مقدّسة بالنسبة للصديق، مثله تماماً. أُعجبت ماريا فاسيليفنا بمظهر الحاج مراد ومسلكه، ومالت إليه أكثر حين توقّد وجه الحاج مراد واحمرّ

عندما مدّت له يدها البيضاء الكبيرة. دعته للجلوس، وبعد أن سألته إن كان يشرب القهوة أمرت بتقديمها، إلا أن الحاج مراد رفض أن يشرب القهوة حين قُدِّمت إليه. كان يفهم الروسية قليلاً، لكنه لم يكن يجيد التكلّم بها، وحين كان يتعسّر عليه فهم ما يُقال كان يبتسم، وقد راقت ابتسامته لماريا فاسيليفنا، كما لبولتوراتسكي. أما ابن ماريا فاسيليفنا الأجعد الشعر ذو العينين المبتهجتين، الذي كانت أمه تدعوه باسم «بُولكا»، فكان يقف بجوار والدته ولا يحوّل عينيه عن الحاج مراد الذي سمع به بوصفه محارباً خارقاً.

ترك فورنتسوف الحاج مراد مع زوجته ومضى إلى مكتبه ليصدر الأمر بتبليغ القيادة باستسلام الحاج مراد. وبعد أن كتب تقريراً إلى قائد الفيلق الأيسر، الجنرال كوزلوفسكي، في غروزني، ورسالةً إلى أبيه، عاد مسرعاً إلى البيت خشية انزعاج زوجته لكونه فرض عليها شخصاً غريباً ومخيفاً، ينبغي التعامل معه بحيث لا يتم إزعاجه وعدم ملاطفته كثيراً في الوقت نفسه. لكن هلعه كان عبثاً، فالحاج مراد كان جالساً على أريكة، واضعاً بولكا، ربيب فورنتسوف، على ركبته، مطأطئاً برأسه وهو يصغي بانتباه إلى ما يقوله المترجم الذي كان ينقل إليه كلمات ماريا فاسيليفنا التي كانت تضحك. كانت ماريا فاسيليفنا تقول له إنه إذا كان سيعطي كلَّ صديق الغرضَ الذي يثني عليه فسيضطر قريباً إلى السير مثل أبينا آدم...

عند دخول الأمير أنزل الحاج مراد عن ركبته بولكا المندهش والمستاء من ذلك ونهض واقفاً وقد بدّل على الفور بتعبير وجهه الباش والممازح تعبيراً صارماً وجاداً، ولم يعمد إلى الجلوس

إلا حين جلس فورنتسوف. واصل الحاج مراد الحديث وردَّ على كلمات ماريا فاسيليفنا بأن هذا هو القانون عندهم، إذ يجب إعطاء الصديق كل شيء يعجبه.

ثم قال بالروسية وهو يمسّد على شعر بولكا الأجعد الذي صعد على ركبته ثانيةً:

- ابنكِ صديقي.[1]

قالت ماريا فاسيليفنا لزوجها بالفرنسية:

- مجرمك إنسان رائع. أُعجب بولكا بخنجره فأهداه إياه.

أرى بولكا الخنجر لزوج أمه.

قالت ماريا فاسيليفنا:

— C'est un objet de prix.[2]

فقال فورنتسوف:

— Il faudra trouver l'occasion de lui faire cadeau.[3]

كان الحاج مراد جالساً، غاضّاً بصره، ويمسّد على شعر الصبي الأجعد ويقول:

- جدع، جدع.

قال فورنتسوف وهو يخرج الخنجر المشحوذ المصنوع من الفولاذ الدمشقي مع حزّ في وسطه من غمده حتى النصف:

- خنجر رائع، رائع. اشكره باسمي.

(1) يخطئ الحاج مراد في التأنيث والتذكير لكونه لا يجيد اللغة الروسية.
(2) إنه غرض ثمين. (بالفرنسية)
(3) يجب إهداؤه شيئاً في المقابل. (بالفرنسية)

ثم قال للمترجم:

- اسأله بمَ يمكنني أن أخدمه.

نقل المترجم سؤال فورنتسوف إلى الحاج مراد فأجاب على الفور أنه لا يحتاج شيئاً، ولكنه يسأل أن يؤخذ الآن إلى مكان يستطيع أن يصلّي فيه. استدعى فورنتسوف حاجبه وأمره بتلبية رغبة الحاج مراد.

ما إن انفرد الحاج مراد بنفسه في الغرفة المخصصة له حتى تغيّرت ملامحه: اختفى من وجهه تعبير الرضا وذلك اللطف وتلك البهجة، وحلّ محلها تعبير الانهمام.

الاستقبال الذي استقبله به فورنتسوف كان أفضل مما توقّع. لكن كلما كان هذا الاستقبال أفضل، كان الحاج مراد يثق أقل بفورنتسوف وضباطه. كان يخشى كل شيء: أن يعتقلوه ويصفّدوه في الأغلال وينفوه إلى سيبيريا، أو ببساطة يقتلوه، لذا كان حذراً.

سأل إلدار الذي دخل عليه عن المكان الذي وُضع فيه المريدون، وعن مكان الخيول، وما إن كانوا قد أخذوا منهم أسلحتهم.

قال إلدار إن الخيول في إسطبل الأمير، وأنهم وضعوا المريدين في عنبر وتركوا أسلحتهم بحوزتهم، وأن المترجم يحمل لهم الطعام والشاي.

هزّ الحاج مراد رأسه، غير فاهم ما يجري، وخلع ملابسه وراح يصلّي. وبعد أن فرغ من الصلاة أمر بجلب خنجره الفضي، ثم ارتدى ملابسه وتمنطق بحزامه وجلس متربّعاً على الأريكة في انتظار ما سيحدث.

في الساعة الخامسة دُعي لتناول الغداء مع الأمير.

لم يتناول الحاج مراد على الغداء إلا الرز باللحم، وسكب في صحنه من نفس الطبق الذي سكبت منه ماريا فاسيليفنا.

قالت ماريا فاسيليفنا لزوجها:

- إنه يخشى أن نسمّمه، فقد تناول الطعام من الطبق نفسه الذي تناولتُ منه.

ثم استدارت نحو الحاج مراد وسألته عبر المترجم عن وقت صلاته القادمة. رفع الحاج مراد خمسة أصابع وأشار إلى الشمس.

- هذا يعني قريباً.

أخرج فورنتسوف ساعته الجيب وضغط على الزنبرك فدقّت الساعة مشيرةً إلى الرابعة والربع. كان واضحاً أن هذا الرنين أثار دهشة الحاج مراد، وطلب أن ترنّ الساعة ثانيةً وأن يريه إياها. فقالت ماريا فاسيليفنا لزوجها:

— Voilà l'occasion. Donnez-lui la montre.(1)

وعلى الفور عرض فورنتسوف الساعة على الحاج مراد. وضع الحاج مراد يده على صدره وأخذ الساعة، وضغط على الزنبرك عدة مرات وراح يستمع إلى رنّات الساعة وهو يهزّ رأسه مبتهجاً.

بعد الغداء أخبروا الأمير بقدوم الياور ميللر زاكوميلسكي.

نقل الياور إلى الأمير أن الجنرال، حين علم باستسلام الحاج مراد، انزعج بشدّة لعدم تبليغه بالأمر، وأنه يطلب إحضار الحاج مراد إليه في التو والحال. قال فورنتسوف إن أمر الجنرال سيتم تنفيذه

(1) ها هي الفرصة. أهدِه الساعة. (بالفرنسية)

حالاً، ونقل طلب الجنرال إلى الحاج مراد عبر المترجم، وسأله أن يذهب معه إلى ميللر.

لمّا عرفت ماريا فاسيليفنا سبب مجيء الياور أدركت على الفور أن شجاراً قد يحدث بين زوجها والجنرال، ورغم كل اعتراضات زوجها إلا أنها أصرّت على الذهاب معه ومع الحاج مراد إلى الجنرال.

— Vous feriez beaucoup mieux de rester; c'est mon affaire, mais pas la vôtre.

— Vous ne pouver pas m'empêcher d'aller voir madame la générale.[1]

- ربما في وقت آخر.

- وأنا أريد الذهاب الآن.

لم يكن في اليد حيلة. وافق فورنتسوف، ومضى ثلاثتهم.

حين دخلوا قاد ميللر ماريا فاسيليفنا بلباقة متجهمة إلى حيث زوجته، وأمر الياور بإدخال الحاج مراد إلى غرفة الاستقبال وإبقائه هناك إلى أن تبلغه أوامره، ثم فتح باب مكتبه وقال لفورنتسوف: «من فضلك» طالباً إلى الأمير دخول المكتب قبله. وحين دخلا المكتب وقف قبالة الأمير ومن دون أن يسأله الجلوس قال:

- إنني أنا القائد هنا، لذا فإن كل المباحثات مع العدو يجب أن تجري من خلالي. لمَ لم تبلغني بانشقاق الحاج مراد؟

(1) - سيكون أفضل بكثير لو بقيتِ، فهذا شأني لا شأنكِ.
- لا يمكنك منعي من زيارة الجنرالة. (بالفرنسية)

أجاب فورنتسوف ممتقعاً من الاضطراب متوقّعاً هجمةً فظة من الجنرال المحتدم غضباً، وقد انتقلت إليه عدوى غضب الجنرال في الوقت نفسه:

- جاءني الكشّاف وأعلن عن رغبة الحاج مراد في تسليم نفسه لي.

- أسألك لمَ لم تبلغني؟

- كنت أنوي ذلك أيها البارون ولكن...

- لستُ باروناً بالنسبة إليك، بل صاحب المعالي.

وفجأةً انفجر غضب البارون الذي كبحه طويلاً وقال كل ما كان يضطرم في نفسه منذ وقتٍ طويل:

- أنا لم أخدم مليكي سبعةً وعشرين سنة لكي يأتي أناس لم يبدأوا الخدمة إلا البارحة، مستفيدين من علاقات أقاربهم، ويتصرّفوا في ما لا يعنيهم تحت أنفي...

قاطعه فورنتسوف قائلاً:

- معاليكم، أرجو ألّا تقولوا ما ليس منصفاً في حقّي.

فقال الجنرال بمزيدٍ من الاحتداد:

- إنني أقول الحقيقة ولا أسمح لك...

في هذه اللحظة دخلت ماريا فاسيليفنا وهي تحفحف بتنورتها، ودخلت في إثرها سيدة وقور قصيرة القامة هي زوجة ميللر زاكوميلسكي.

شرعت ماريا فاسيليفنا تقول:

- رويدك أيها البارون، فسيمون لم يقصد إزعاجك.

- إنني، أيتها الأميرة، لست أتحدث عن ذلك...

- أتدري، يستحسن أن ندع هذا الأمر، فأنت تعلم أن الجدال الرديء أفضل من الخصومة الجيدة. ما هذا الذي أقوله...

وضحكت.

أذعن الجنرال المحتدّ لابتسامة الحسناء الساحرة ولاح طيف ابتسامة أسفل شاربيه.

قال فورنتسوف: «أقرّ أنني أخطأت ولكن...»، فقال ميللر: «وأنا أيضاً فقدت أعصابي»، ومدّ يده للأمير مصافحاً.

حلّ السلام، وتقرّر إبقاء الحاج مراد في عهدة ميللر مؤقتاً ومن ثم إرساله إلى قائد الجناح الأيسر.

كان الحاج مراد يجلس في الغرفة المجاورة، ورغم أنه لم يكن يفهم ما يُقال إلا أنه فهم ما يحتاج فهمه، أي إنهم كانوا يتجادلون في أمره، وأن خروجه على شامل أمر بالغ الأهمية بالنسبة إلى الروس، ولذا فإن في وسعه - إن لم ينفوه أو يقتلوه - أن يطلب منهم الكثير. عدا عن أنه أدرك أيضاً أن ميللر زاكوميلسكي، رغم أنه القائد، لا يتمتع بالنفوذ الذي يتمتع به فورنتسوف، مرؤوسه، وأنّ فورنتسوف هو المهم وليس ميللر زاكوميلسكي. ولذلك فإن الحاج مراد، حين استدعاه ميللر زاكوميلسكي وأخذ يستجوبه، تصرّف بكبرياء وترفّع قائلاً إنه فارق الجبال لكي يخدم القيصر الأبيض، وإنه سيقدّم تقريراً يبيّن فيه كل شيء، ولكن لسرداره فقط، أي للقائد العام، الأمير فورنتسوف، في تفليس.

- 7 -

نُقل أفدييف الجريح إلى المستشفى القائم في بيتٍ خشبيٍّ مسقوف غير كبير عند مدخل الحصن، ووُضِع على أحد الأسرّة الخالية في عنبرٍ مشترك. كان في العنبر أربعة مرضى: أحدهم كان يتقلّب في حرارة حمّى التيفوس، وآخر كان شاحباً مع زُرقة تحت عينيه، ومحموماً، ينتظر أن تعاوده نوبة حمّى ولا يتوقف عن التثاؤب، بالإضافة إلى جريحين آخرين أُصيبا في غارة قبل ثلاثة أسابيع، أحدهما في راحة يده (وكان يقف على قدميه) والآخر في كتفه (وكان يجلس على السرير). أحاط الجميع، ما عدا المصاب بالتيفوس، بأفدييف وراحوا يطرحون الأسئلة على الذين أحضروه.

قال أحد الذين أحضروه:

- أحياناً ينهمر الرصاص انهمار المطر ولا يُصاب أحد، أما هذه المرة فبالكاد أطلقوا خمس رصاصات...

- لكلٍّ أجَلُه!

«اوخ» صاح أفدييف بصوتٍ عالٍ، كاتماً ألمه، حين أخذوا يضجعونه على السرير، وبعد أن وضعوه في السرير اكتفى بتقطيب

وجهه وكفّ عن الأنين، إلا أنه ظلّ يحرّك قدميه بلا توقف، واضعاً يديه على جرحه وهو ينظر أمامه بلا حراك.

جاء الطبيب وأمر بقلب الجريح على بطنه ليرى إن كانت الرصاصة قد خرجت من ظهره، ثم سأل مشيراً إلى ندوب بيض متقاطعة على ظهره وإسته: «ما هذه؟» فقال أفدييف محشرجاً:

- إنها قديمة، حضرتكم.

كانت تلك الندوب آثار العقاب الذي تلقّاه جرّاء المال الذي شرب به الخمر.

قلبوا أفدييف ثانيةً وأخذ الطبيب ينكش بمجسّه في بطنه طويلاً حتى وجد الرصاصة، لكنه لم يستطع إخراجها فضمّد الجرح ووضع عليه لصقة ثم غادر. طوال الوقت الذي استغرقه الطبيب في نكش الجرح وتضميده كان أفدييف مستلقياً مغمض العينين وهو يكزّ على أسنانه، ولكنه فتح عينيه بعد مغادرة الطبيب وراح يرنو حوله في دهشة.

كانت عيناه مصوبتين نحو المرضى والممرض، لكنه بدا كأنما لا يراهم، بل يرى شيئاً آخر؛ شيء يثير دهشته كثيراً.

جاء رفيقا أفدييف، بانوف وسريوغين، لكن أفدييف ظل مستلقياً وهو ينظر أمامه في ذهول، ومضى وقتٌ طويل حتى تعرّف رفيقيه، رغم أنه كان ينظر إليهما مباشرةً.

قال بانوف:

- هيه، يا بيوتر، أتريد أن نوصل لأهلك شيئاً؟

لم يجب أفدييف، رغم أنه نظر إلى وجه بانوف.

سأله بانوف ثانيةً وهو يلمس يده الكبيرة الباردة:

- أقول: ألا تريد أن نبلغ أهلك شيئاً؟

بدا أفدييف كأنما أفاق.

- وأنتونيتش، هل جاء؟

- نعم جئت. أتريدنا أن نوصل رسالة إلى أهلك؟ سريوغين سيكتبها.

قال أفدييف محوّلاً نظره نحو سريوغين بصعوبة:

- سريوغين، هل ستكتب؟.. اكتب إذن: «ابنكم، ولدكم بيوتر، يوصيكم بطول البقاء[1]»، ويحسد أخاه. لقد أخبرتك بهذا اليوم. وهذا يعني أنني سعيد الآن. فليهنأ في حياته. بارك الله له. أنا سعيد. اكتب هذا.

بعد قوله هذا لاذ بالصمت طويلاً، محدّقاً في بانوف. وفجأةً سأل:

- والغليون، هل وجدته؟

هزّ بانوف رأسه ولم يجب، فأعاد أفدييف:

- الغليون، الغليون أقول، هل وجدته؟

- كان في الحقيبة.

فقال أفدييف:

- آها، آها. والآن أعطوني شمعة، فأنا أوشك أن أموت.

(1) «يوصيكم بطول البقاء» تعبير مجازي معناه: «مات». (م)

في هذه الأثناء حضر بولتوراتسكي ليعود جنديه. قال:

- كيف حالك يا أخ، سيئة؟

أغمض أفدييف عينيه وهزّ رأسه نافياً. كان وجهه العظمي المنحوت شاحباً وصارماً. لم يردّ بشيء وفقط كرّر مخاطباً بانوف:

- أعطني شمعة. سوف أموت.

وضعوا شمعة في يده، لكن أصابعه لم تنثنِ فوضعوها بين أصابعه وأمسكوا بها. غادر بولتوراتسكي، وبعد ذهابه بخمس دقائق وضع العريف أذنه على قلب أفدييف وقال إنه قد مات.

وُصِف موت أفدييف، في التقرير الذي أُرسل إلى تيفليس، على النحو التالي: «في 23 تشرين الثاني غادرت سريتان من فرقة كورين للتحطيب في الغابة، وفي منتصف النهار هاجمت مجموعة كبيرة من الجبليين الحطّابين على حين غرّة، فبدأ الرماة يتراجعون، وفي هذه الأثناء التحمت السرية الثانية مع الجبليين بالسلاح الأبيض وردّتهم على أعقابهم. أُصيب في المعركة جنديان بجروح طفيفة وقُتل واحد. أما خسائر الجبليين فكانت حوالي مئة شخص بين قتيلٍ وجريح».

- 8 -

في اليوم الذي قضى فيه بيتروخا أفدييف في مستشفى فوزميجنسك، كان والده الشيخ، وزوجة أخيه الذي التحق أفدييف بالجيش بدلاً منه، وابنة أخيه الأكبر، وهي فتاة في سنّ الزواج، يدرسون الشوفان في البيدر الجليدي المتجمّد. ففي اليوم السابق هطل ثلجٌ غزير، وصار الطقس شديد البرودة في الصباح. كان الشيخ قد استيقظ مع صياح الديكة الثالث، وحين رأى عبر النافذة التي غطّاها الصقيع ضوء القمر نزل من فوق المدفأة وانتعل حذاءه وارتدى معطفه الفرو وطاقيته ومضى إلى البيدر، وبعد أن اشتغل ساعتين عاد إلى الكوخ وأيقظ ابنه والنساء. حين ذهبت النساء والفتاة إلى البيدر وجدنَ أن أرضيته قد نُظّفت، وكانت المجرفة الخشبية مغروزة في الثلج الأبيض الهشّ، وإلى جواره مكانس شُعَبها إلى أعلى، وكانت حزم الشوفان البكر مفروشةً في صَفَّيْن، وقد عُقدت إلى بعضها بعضاً بحبلٍ طويل، على أرضية البيدر النظيفة. تناولت النساء الدرّاسات وأخذنَ يدرسنَ الدريس مُوقعاتٍ ضرباتهن بإيقاعٍ منتظمٍ متوافق. كان الشيخ يضرب بقوة بدرّاسةٍ ثقيلة، هارساً القش، والفتاة تضرب رؤوس السنابل ضربات منتظمة، والكنّة تُقلّبها.

أفل القمر وبدأ الفجر ينبلج، وكادوا يبلغون نهاية الحبل عندما خرج الابن الأكبر، آكيم، إلى العمّال، في معطفٍ قصير من الفرو ومعتمراً طاقية.

توقف الأب عن الدرس واتّكأ على الدراسة وصاح به:

- مالك تتكاسل هكذا يا تنبل؟

- لكن كان يجب الاعتناء بالخيل.

فقال الأب مقلّداً إياه بسخرية:

- الاعتناء بالخيل! العجوز ستعتني بها. خذ مضربك. لقد سمنتَ كثيراً. سكّير!

دمدم الابن متذمراً:

- وهل أشرب على حسابك؟

- ماذا؟ سأل الشيخ مهدّداً، وقد قطّب حاجبيه وفوّت ضربة.

تناول الابن مضربه في صمت، وبدأت أربعة مضارب تعمل: تْرابْ، تا-با-تْرابْ، تا-با-تاب...تْرابْ! كان مضرب الشيخ الثقيل يضرب بعد كل ثلاث ضربات.

قال الشيخ، مفوّتاً ضربته، وهو يفتل مضربه في الهواء فقط لكي لا يخلّ بالإيقاع:

- يا لك من ثرثار! انظر إلى نفسك، كأنك سيد من السادة. وانظر إلى سروالي كيف يزلق مني.

فرغوا من الصف وأخذت النساء ترفعنَ القش بالمجارف.

- بيتروخا أحمق لكونه ذهب بدلاً منك. في الجندية لكانوا

خلّصوك من حماقاتك وطيشك. أما هو فكان يعادل خمسة من أمثالك في البيت.

قالت الكنّة وهي تلقي جانباً حزم القش المدروسة:

- كفى يا أبتِ!

- نعم، فأنا أطعمكم أنتم الستة، ولا أتلقّى مساعدةً من أيٍّ منكم. كان بيتروخا يعمل عمل رجلين، لا مثل...

قدمت الأمّ العجوز عبر الدرب المطروق من الفناء وهي تخشخش على الثلج بخفّيها الجديدين اللذين يشدّان بإحكام على قلشينين[1] من الصوف.

كان الرجلان يكوّمان الحبوب غير المذراة في أكوام، والنساء يكنسن.

قالت العجوز:

- لقد جاء المختار وقال إن على الجميع الذهاب للقيام بأعمال السخرة ونقل الطوب. لقد حضّرت الفطور. هلمّوا.

قال الشيخ لآكيم:

- حسناً، أسرج الحصان الكميت واذهب، وحذارِ أن تسبّب المتاعب، كما فعلت قبل أيام، وإلا جعلتني أندم على بيتروخا.

فقال آكيم لأبيه متململاً:

- عندما كان في البيت كنت توبّخه، وبعد أن غادر صرت تعيّرني وتنكّد عيشي.

(1) القلشين: عُصابة تُلفّ على القدم بدلًا من الجوارب. وكذلك تسمى «الكَلْسات».

فقالت الأم محتدّة:

- معناها أنك تستحق! فأنت لا تعدل بيتروخا أبداً.

قال الابن: طيب، طيب!

- ويقول «طيب» أيضاً. شرب بثمن الطحين، والآن يقول: طيب!

فقالت الكنّة: «لا داعي لذكر الخميرة القديمة مرتين»[1]، ووضع الجميع مضاربهم على الأرض ومضوا إلى الدار.

كانت الخلافات بين الأب والابن قد بدأت منذ وقتٍ طويل، منذ التحاق بيوتر بالجيش تقريباً. فقد شعر الشيخ آنذاك أنه قد استبدل نسراً بوقوق. والحق أنه تبعاً للقانون، كما كان الشيخ يفهمه، كان يجب أن يذهب من لا أبناء له بدلاً من العائل. وكان لآكيم أربعة أبناء، بينما بيوتر لم يكن له أبناء، لكنه كان عاملاً مجدّاً كأبيه؛ فقد كان حاذقاً، فطناً، قوياً، جَلِداً، والأهم أنه كان محباً للعمل، فقد كان يعمل دائماً، وإن مرّ بأناسٍ يعملون كان يهرع لمساعدتهم في الحال، كما كان يفعل الأب أيضاً: إما أن يحصد صفّين من السنابل بالمنجل، أو يحمّل عربةً بالحبوب، أو يحتطب شجرةً، أو يقطّع الحطب. وقد أسف العجوز عليه، لكن لم يكن في اليد حيلة. فالجندية كانت كالموت. كان الجندي غصناً مبتوراً، ولم يكن ثمة جدوى من ذكره، فهذا يقطّع نياط القلب. إلا أن الشيخ كان يأتي على ذكره من حين إلى آخر لكي يخز ابنه البكر وحسب، كما فعل للتو. أما الأمّ فكانت تذكر ابنها الأصغر كثيراً، وقد طلبت إلى زوجها العجوز منذ زمنٍ بعيد، منذ أكثر من عام، أن يرسل لبيتروخا بعض المال، لكن الشيخ لم يعلّق.

---

(1) مثل شعبي بمعنى «ما فات مات».

كان آل أفدييف ميسورين، وكان لدى الرجل العجوز بعض المال المدّخر، لكنه ما كان ليمسّه بأي شكل من الأشكال. والآن، حين سمعت العجوز أنه يذكر ابنهما الأصغر، قررت أن تسأله ثانيةً أن يرسل له ولو روبلاً واحداً عندما يبيع الشوفان، وهكذا فعلت. فحين بقيا بمفردهما، بعد ذهاب الشبان إلى السخرة، أخذت تقنع زوجها بإرسال روبل من ثمن الشوفان لبيتروخا. لذا، عندما تمّ إفراغ اثني عشر رُبعاً من الشوفان المذرو في الزكائب الموضوعة على ثلاث زحافات جليد وثُبِّت الزكائب بإحكام بمسامير خشبية، أعطت زوجها العجوز رسالةً كانت قد أملتها على القسّ، ووعدها زوجها أن يضع روبلاً مع الرسالة في المدينة ويرسلها إلى عنوان ابنهما.

ارتدى الشيخ معطفاً جديداً من الفرو وقفطاناً ولفّ قدميه بقلشينين أبيضين نظيفين من الصوف، وأخذ الرسالة فوضعها في محفظته، ثم ابتهل إلى الله وركب الزحافة الأمامية وتوجّه إلى المدينة. وركب حفيده الزحافة الأخيرة. وفي المدينة طلب العجوز إلى أحد البوابين أن يقرأ له الرسالة وراح يصغي بانتباه واستحسان.

جاء في رسالة والدة بيتروخا: أولاً، بركاتها، وثانياً، تحيات الجميع وخبر موت إشبينه، وفي النهاية تخبره أن أكسينيا (زوجة بيوتر) «لم ترد العيش معهم ومضت تشقّ طريقها في الحياة. يُقال إنها تعيش عيشاً طيباً وشريفاً»، ثم يأتي ذكر الهدية، الروبل. ثم أضافت العجوز البائسة ما يعتمل في قلبها مباشرةً طالبةً من القسّ، والدموع في عينيها، أن يكتب ما تقول بحذافيره:

«كما أنني، يا ولدي الحبيب، يا حمامتي بيتروشنكا، ذرفتُ

دموعي حزناً عليك. لمن تركتني يا شمسي التي لا مثيل لها...» وهنا ناحت العجوز وبكت ثم قالت:

- يكفي هذا.

هكذا ظلت الرسالة، ولكن لم يكن مقدّراً لبيتروخا تلقّي خبر مغادرة زوجته البيت، ولا تلقّي الروبل، ولا كلمات أمه الأخيرة. فقد عادت الرسالة أدراجها، وكذلك المال، مرفقةً بنبأ مقتل بيتروخا في الحرب «دفاعاً عن القيصر والوطن والعقيدة الأرثوذكسية». هذا ما كتبه الكاتب الحربي.

حين تلقّت العجوز النبأ ناحت بصوتٍ عالٍ، قدر ما سمح لها الوقت، ثم انهمكت في العمل ثانيةً. وفي يوم الأحد التالي ذهبت إلى الكنيسة ووزّعت قطعاً من خبز القربان «على الناس الطيبين ليدعوا لخادم الرب بيوتر».

أرملته أكسينيا أيضاً ناحت حين علمت بموت «زوجها الحبيب الذي لم تعش معه سوى عامٍ واحد». وقد أسفت لزوجها وكذلك لحياتها المحطّمة كلها. وأثناء نواحها جاءت على ذكر «شعر بيوتر ميخائيلوفيتش الأجعد الأشقر، وحبّه، وحياتها البائسة مع يتيمها فانكا»، وأخذت تعاتب بيتروشا بمرارة «لكونه أشفق على أخيه ولم يشفق على تشرّدها المحزن بين الأغراب».

إلا أن أكسينيا في أعماقها أفرحها موت زوجها، فقد كانت حاملاً من جديد من الحانوتي الذي كانت تقيم عنده، ولم يعد أحد يستطيع الآن أن يعيّرها أو يتكلّم عليها، ولسوف يتزوجها الحانوتي حسبما قال لها حين راودها عن نفسها.

- 9 -

ميخائيل سيميونوفيتش فورونتسوف، الذي ترعرع في إنكلترا، وابن السفير الروسي، كان شخصاً ذا تعليمٍ أوروبي قلّ نظيره وسط الموظفين الروس الأعلى منصباً في ذلك الوقت، وكان طموحاً، رفيقاً ولطيفاً مع مرؤوسيه، ونبيلاً من نبلاء البلاط بكل معنى الكلمة مع من هو أرفع منه شأناً. لم يكن يفهم الحياة من دون سلطة ومن دون خضوع. وحاز أعلى المراتب والأوسمة كلها وكان يُعدُّ عسكرياً بارعاً، بل ومن هزم نابليون قرب بلدة «كراون». كان قد تجاوز السبعين في العام 1851، إلا أنه كان لا يزال قوياً تماماً، فقد كان نشيط الحركة، والأهم أنه كان يتمتع بكل حذاقة العقل اللمّاح والحصيف، الموجَّه لتعزيز سلطته وتأكيد شعبيته وذيوع صيته. كان بالغ الثراء - بفضل ثروته وثروة زوجته الكونتيسّة من آل برانيتسكي - وكان يتلقّى مرتَّباً كبيراً كحاكم مقاطعة، وقد أنفق قسماً كبيراً من ثورته في تشييد قصر وحديقة على الشاطئ الجنوبي لشبه جزيرة القرم.

مساء يوم 7 كانون الأول 1851 وصلت عربة بريد تجرّها ثلاثة خيول إلى قصره في تفليس. الضابط المتعب، المسودّ كله من التراب والقادم من عند الجنرال كوزلوفسكي بنبأ استسلام الحاج

مراد للروس، نَفَضَ قدميه ممرّناً إياهما، ثم تجاوز الحرّاس ودخل عبر الباب الواسع إلى قصر المحافظ. كانت الساعة السادسة مساءً، وكان فورونتسوف متوجهاً لتناول الغداء حين أبلغوه بوصول الساعي، فاستقبله من دون إبطاء ما جعله يتأخر بضع دقائق عن الغداء. ولمّا دخل غرفة الاستقبال نهض المدعوون إلى المأدبة، وكانوا قرابة ثلاثين شخصاً، بعضهم كان جالساً إلى جوار الأميرة يليزافيتا كسافيريفنا وبعضهم كان واقفاً قرب النوافذ، والتفتوا بوجوههم إليه. كان فورونتسوف يرتدي سترته العسكرية المعتادة من دون كتفيات، مع كتّافيات وصليب أبيض في رقبته، وكان وجهه الحليق تماماً يبتسم ابتسامةً عذبة، وراح يرنو إلى المجتمعين جميعاً وقد زرّ عينيه.

داخلاً بخطىً خفيفة ومتعجلة إلى صالة الاستقبال أخذ فورنتسوف يعتذر للسيدات عن تأخره ويسلّم على الرجال، ثم توجّه نحو الأميرة الجورجية مَنانا اوربلياني، وهي حسناء مكتنزة فارعة الطول في الخامسة والأربعين من العمر ذات سمات شرقية، ومدّ لها يده ليقودها إلى المائدة. أما الأميرة يليزافيتا كسافيريفنا فأعطت ذراعها بنفسها لجنرالٍ، حلّ زائراً، أصهب الشعر كثّ الشاربين. وقدّم أمير جورجي ذراعه للكونتيسة شوازول، صديقة الأميرة فورونتسوفا. تبع هؤلاء الأزواج الثلاثة الدكتور أندريفسكي والياورية وآخرون، بعضهم مع سيدات وبعضهم من دونهنّ. وأخذ الخدم، بقفاطينهم وكلساتهم وأخفافهم، يسحبون الكراسي ليجلس الضيوف ثم يعيدونها إلى أماكنها؛ وشرع رئيس الخدم يسكب في احتفاءٍ ومهابة حساءً يتصاعد منه البخار من قدرٍ فضية.

جلس فورونتسوف في صدر الطاولة الطويلة، وقباله جلست الأميرة، زوجته، إلى جوار أحد الجنرالات، وإلى يمينه جلست عشيقته، الحسناء اوربلياني، وإلى يساره أميرة جورجية هيفاء، سمراء، مورّدة الخدّين، رائعة التبرّج والزينة، دائمة الابتسام.

— Excellentes, chère amie, Simon a eu de la chance.(1)

هكذا أجاب فورونتسوف ردّاً على سؤال الأميرة عمّا أبلغه إيّاه الساعي، وأخذ يتحدث بصوتٍ عالٍ كي يتسنّى لكل الجلوس حول المائدة سماع الخبر المذهل، - بالنسبة إليه لم يكن الخبر مفاجئاً تماماً، ذلك أن المباحثات كانت تجري منذ وقتٍ طويل، - وهو أنّ أشجع مساعدي شامل، الحاج مراد، قد سلّم نفسه للروس وأنه سيؤتى به غداً إلى تفليس.

الضيوف جميعاً، حتى الشباب من الياورية والموظفين، الجالسون على أطراف المائدة، الذين كانوا يضحكون بصوتٍ خافت قبل ذلك، صمتوا وراحوا يصغون.

وحين توقّف الأمير عن الكلام سألت الأميرة الجنرال الأصهب ذا الشارب الكثّ الجالس إلى جوارها:

- وأنت يا جنرال، هل التقيت الحاجَّ مراد هذا؟

- وأكثر من مرة أيتها الأميرة.

وراح الجنرال يروي كيف انقضّ الحاج مراد عام 1843 - بعد استيلاء الجبليين على كِرگِبِل - على فرقة الجنرال باسِّك، وكيف قتل العقيد، آمر الفوج، على مرأى منهم تقريباً.

(1) أنباء رائعة يا عزيزتي، سيمون محظوظ. (بالفرنسية).

كان فورونتسوف يصغي إلى الجنرال مبتسماً بلطف، وقد سرّه، فيما يبدو، انخراط الجنرال في الحديث، ولكن ارتسم فجأةً على وجهه تعبيرٌ ينمّ عن الكآبة وشرود الذهن.

ثم أخذ الجنرال، الذي تحمّس للكلام، يتحدث عن مرةٍ أخرى واجه فيها الحاجَّ مراد فقال:

- إنه هو الذي، إذا تكرّمتم سعادتكم وتذكّرتم، نصب كميناً لحملة الإغاثة المشؤومة تلك.

- أين؟ سأل فورونتسوف زارّاً عينيه.

فحوى الأمر أن الجنرال المقدام أطلق تسمية «إغاثة» على غارة دارغينسك المشؤومة حين كانت الفرقة كلها ستُباد بالفعل، مع الأمير فورونتسوف الذي كان قائدها، لو لم تتم نجدته بقوات المشاة. كان الجميع يعلمون أنّ حملة دارغينسك برمّتها، بقيادة فورونتسوف، التي فقد فيها الروس الكثير من القتلى والجرحى وعدة مدافع، كانت حادثةً مخزية، ولهذا إن تحدث أحدٌ ما عن تلك الحملة في حضور فورونتسوف كان يرويها كما وردت في التقرير الذي أرسله فورونتسوف إلى القيصر، أي إنها كانت ملحمةً عظيمة من ملاحم القوات الروسية. أما كلمة «إغاثة» فكانت تشير صراحةً إلى أنها لم تكن ملحمةً عظيمة، بل كانت خطأً جسيماً تسبّب بهلاك أناسٍ كثيرين.

أدرك الجميع ذلك، فتظاهر بعضهم أنهم لم يفطنوا لمعاني كلمات الجنرال، فيحين راح آخرون ينتظرون في هلع ما سيحدث؛ بينما أخذ بعضهم يتبادلون النظرات مبتسمين.

الوحيد الذي لم يلحظ شيئاً كان الجنرال الأصهب الكثّ الشاربين المستمتع بسرد روايته، فأجاب بهدوء:

- في حملة الإغاثة، سعادتكم.

وبعودة الحديث إلى موضوعه المفضّل روى الجنرال بالتفصيل «**كيف شقّ الحاج مراد ببراعة الفرقة نصفين بحيث أنه لو لم تصل** الإغاثة - بدا الجنرال كأنما يكرّر كلمة «إغاثة» في شغف - لهلك الجميع، لأن...»

لكن لم يلحق الجنرال أن يروي الوقائع كلها. ذلك أن منانا أوربلياني، وقد فهمت ما يجري، قطعت حديث الجنرال سائلةً إيّاه عن مرتفقات مسكنه في تفليس. ذُهل الجنرال، وراح ينظر إلى الجميع وإلى ياوره في طرف المائدة، الذي كان يحدّق فيه بنظرةٍ ثابتة ذات دلالة... وفجأةً تفطّن للأمر، ومن دون أن يجيب الأميرة عبس ولاذ بالصمت وراح يأكل بسرعة، من دون أن يمضغ، مزدرداً الطبق الشهي في صحنه الغريب الشكل، والطعم أيضاً، بالنسبة إليه.

شعر الجميع بالحرج، لكن أنقذ الموقف الأمير الجورجي، رجل البلاط الغبي جداً لكن المداهن الحاذق والبالغ الرهافة، الذي كان جالساً بجانب الأميرة فورونتسوفا من الناحية الأخرى، فقد راح يروي - وكأنما لم يلحظ شيئاً - بصوتٍ عالٍ قصة خطف الحاج مراد أرملة أحمد خان المختوليني، فقال:

- دخل القرية ليلاً، وسلب ما كان يلزمه، ثم خبّ بحصانه مسرعاً لا يلوي على شيء.

سألت الأميرة:

– لكن لِمَ هذه المرأة بالذات؟

– لأنه كانت هناك عداوة بينه وبين زوجها، وكان يتعقّبه، لكنه لم يظفر به حتى مماته، فثأر لنفسه من أرملته.

ترجمت الأميرة هذا لصديقتها القديمة، الكونتيسة شوازول، الجالسة بجوار الأمير الجورجي، فقالت وقد أغمضت عينيها وهي تهزّ برأسها:

— Quelle horreur![1]

فقال فورونتسوف وهو يبتسم:

– أوه لا. فقد قيل لي إنه عامل أسيرته باحترامٍ فروسيّ ثم أخلى سبيلها.

– نعم، لكن لقاء فدية.

– أجل بالطبع، لكنه رغم ذلك تصرّف بنبل.

كلمات الأمير هذه غيّرت نبرة الحديث عن الحاج مراد. فقد أدرك النبلاء أنه كلّما رُفع من شأن الحاج مراد سُرَّ الأمير فورونتسوف أكثر.

– إن شجاعة هذا الرجل مذهلة. إنه إنسان رائع.

– كيف لا، ففي عام 1849 هاجم تميرخان شورا في وضح النهار ونهب الحوانيت.

وشرع الأرمني الجالس في طرف الطاولة، الذي كان في تميرخان شورا آنذاك، يروي تفاصيل مأثرة الحاج مراد هذه.

(1) يا للفظاعة! (بالفرنسية)

مضى الغداء كله عموماً في قصص عن الحاج مراد، وامتدح الجميع، مقاطعين بعضهم بعضاً، شجاعة الحاج مراد وذكاءه وشهامته. ولكن بعضهم روى كيف أنه أمر بقتل ستة وعشرين أسيراً؛ إلا أن هذا أيضاً قوبل بالاعتراض المعتاد:

- وما العمل! A la guerre comme à la guerre[1]

- إنه إنسان عظيم.

وقال الأمير الأرمني الغبي الذي يتمتع بموهبة التملّق:

- لو أنه ولد في أوروبا لربما كان نابليون الجديد.

كان يعلم أن أي ذكر لنابليون يطيب للأمير فورونتسوف الذي يضع في عنقه وسام الصليب الأبيض الذي ناله لقاء انتصاره على نابليون.

قال فورونتسوف:

- إن ليس نابليون فلربما كان ليكون جنرال خيّالة مقداماً، أجل.

- إن ليس نابليون فميورات[2].

- واسمه: الحاج مراد.

قال أحدهم:

- لقد حانت نهاية شامل بعد أن استسلم الحاج مراد.

وقال آخر:

- إنهم يشعرون الآن (هذه «الآن» كانت تعني: في عهد فورونتسوف) أنهم لن يستطيعوا الصمود.

(1) الحرب هي الحرب. (بالفرنسية)
(2) يواخيم ميورات (1767-1815): أشهر جنرالات نابوليون. (م)

وقالت منانا أوربلياني:

— Tout cela est grâce à vous.[1]

حاول الأمير فورونتسوف تهدئة موجات التملّق التي بدأت تغمره، لكنه كان مغتبطاً بذلك وأخذ بيد امرأته إلى صالة الاستقبال وهو في غاية الانشراح.

بعد الغداء، حين أحضر الخدم القهوة إلى صالة الاستقبال، كان الأمير لطيفاً بصورة خاصة مع الجميع، وتوجّه نحو الجنرال ذي الشارب الأشقر الكثّ وحاول أن يُظهر له أنه لم يلحظ غلطته. ثم دار على الضيوف جميعاً وجلس إلى طاولة لعب الورق، وكان لا يلعب إلّا اللعبة القديمة «لومبِر» (الأمير). كان شركاء الأمير في اللعب هم: الأمير الجورجي، ثم الجنرال الأرمني الذي تعلّم لعبة «لومبِر» على يد فرّاش الأمير، واللاعب الرابع كان الدكتور أندرييفسكي المعروف بنفوذه الواسع.

وضع فورونتسوف أمامه علبة سعوطه الذهبية التي عليها صورة القيصر ألكسندر الأول، ثم مزّق غلاف ورق اللعب المصقول، ولمّا همّ بتوزيع الورق دخل الفرّاش الإيطالي جيوفاني يحمل رسالةً على صينية من الفضة.

- بريد آخر يا صاحب السعادة.

وضع فورونتسوف الورق من يده معتذراً ثم فضّ الرسالة وشرع يقرأها.

كانت الرسالة من ابنه، وكان يصف فيها استسلام الحاج مراد والمشادّة التي جرت بينه وبين ميللر زاكوميلسكي.

---

(1) هذا كله بفضلك.

- إنها عن الموضوع نفسه.

وأضاف وهو يعطي الرسالة لزوجته:

- Il a eu quelques désagréments avec le commandant de la place. Simon a eu tort. But all is well what ends well.[1]

ثم التفت إلى اللاعبين الذين كانوا ينتظرون باحترام طالباً منهم أخذ ورقهم.

بعد أن وُزِّع الورق أول مرة، فتح فورونتسوف علبة سعوطه وفعل ما يفعله عادةً عندما يكون في مزاجٍ حسن على نحوٍ خاص: تناول بيديه البيضاوين المتجعدتين الهرمتين حفنةً من السعوط الفرنسي ورفعها إلى أنفه وتنشّقها.

(1) لقد نشب خلاف بينه وبين قائد الحصن. كان سيمون مخطئاً. (بالفرنسية) لكن كل ما ينتهي على خير فهو خير. (بالإنكليزية)

- 10 -

عندما حضر الحاج مراد إلى فورونتسوف في اليوم التالي كان بهو استقبال قصر الأمير يغصّ بالناس. فقد كان هناك جنرال الأمس ذو الشارب الكثّ بكامل زيّه الرسمي وكل أوسمته، وقد جاء ليودّع الأمير؛ وكان هناك أيضاً قائد الفوج الذي هُدِّد بمحاكمته لسوء استخدامه مؤونة الفوج؛ كما كان هناك ثريٌّ أرمني، وكان تحت رعاية الدكتور أندرييفسكي، يتمتع بامتياز احتكار تجارة الفودكا ويسعى الآن للوساطة لتجديد عقده؛ وكانت هناك أيضاً أرملة ضابط قتيل، كلها في السواد، قدمت تطالب بمعاش زوجها التقاعدي أو منزلاً لأبنائها على حساب خزينة الدولة؛ وكان هناك أيضاً أمير جورجي مفلس يرتدي بذلة جورجية فاخرة جاء يلتمس لنفسه عقاراً مصادراً من أوقاف الكنيسة؛ وكذلك رئيس حرس يحمل لفيفةً عريضة تضمّ مشروعاً يتعلق بوسيلة جديدة لإخضاع القوقاز؛ كما كان هناك «خان» حضر فقط لكي يقول عندما يذهب إلى موطنه إنه كان عند الأمير.

الكل كان في انتظار دوره، وكان ياور شاب أشقر وسيم يُدخلهم الواحد تلو الآخر إلى مكتب الأمير.

لمّا دخل الحاج مراد بهو الاستقبال، وهو يخطو خطوات نشيطة

ويعرج بعض الشيء، اتجهت الأنظار كلها إليه، وتناهى إليه اسمه يُهمَس في شتى أركان البهو.

كان الحاج مراد يرتدي سترة شركسية بيضاء طويلة وقفطاناً بنيّاً مزيّناً بشريطٍ فضيٍّ رقيق حول ياقته، وفي قدميه قلشينين أسودين وخفّين باللون نفسه يغلّفان قدميه كقفازين، وعلى رأسه الحليق طاقية وعمامة - وهي العمامة نفسها التي اعتقله بسببها الجنرال كلوغيناو[1] بوشايةٍ من أحمد خان، وكانت سبب انتقاله إلى جانب شامل. مشى الحاج مراد بخطواتٍ عجولة على أرضية بهو الاستقبال الخشبية متأرجحاً بقامته الهيفاء وهو يعرج على قدمه الأقصر من الأخرى، وكانت عيناه المتباعدتان تنظران إلى الأمام بهدوء، وقد بدتا أنهما لا تريان أحداً.

حيّاه الياور الوسيم وسأله أن يجلس ريثما يبلِّغ الأمير بوصوله، لكن الحاج مراد رفض الجلوس وظلّ واقفاً، مادّاً إحدى قدميه وواضعاً يده على خنجره، وهو يرمق الحضور في ازدراء.

دنا المترجم، الأمير تارخانوف، من الحاج مراد وراح يتحدث إليه. كان الحاج مراد يجيبه باقتضاب ودونما رغبة. خرج من المكتب أمير كَلْميكي[2]، جاء يشكو أحد مراكز الشرطة، وفي إثره دعا الياور الحاج مراد وقاده إلى باب المكتب وأدخله.

استقبل فورونتسوف الحاج مراد واقفاً عند طرف الطاولة. لم

(1) الجنرال فرانتس كارلوفيتش كلوغيناو (1791-1851): قائد القوات الروسية في شمال داغستان. وقد استخدم تولستوي المراسلات التي جرت بين كلوغيناو والحاج مراد (نُشرت في صحيفة «Русская старина»، العدد 6، سنة 1876، وهي من ضمن وثائق مديرية التاريخ الحربي، قسم القوقاز) وملاحظته عليها عند كتابة «الحاج مراد». (المحرر الروسي).

(2) نسبة إلى قومية الكَلميك (القولميق) وإقليم كَلميكيا (قولميقيا) ذي الحكم الذاتي. (م)

يكن وجه القائد العام الأبيض باسماً، كحاله أمس، بل كان أقرب إلى الصرامة والجدية.

بعد دخوله الغرفة الواسعة، بطاولتها الضخمة ونوافذها الكبيرة بمشربياتها الحديدية الخضراء، وضع الحاج مراد يديه الصغيرتين اللتين لوّحتهما الشمس على موضع تقاطع سترته الشركسية البيضاء وقال دونما عجالة وبوضوح واحترام، باللغة التترية التي يتقنها جيداً، وقد غضّ بصره:

- إنني أضع نفسي تحت رعاية القيصر العظيم ورعايتكم، وأتعهّد أن أخدم بإخلاص، إلى آخر قطرة من دمي، القيصر الأبيض، وآمل أن أكون مفيداً في محاربة شامل، عدوي وعدوّكم.

بعد الاستماع إلى المترجم أخذ فورونتسوف يرنو إلى الحاج مراد، والحاج مراد يرنو إلى وجه فورونتسوف. ولمّا التقت أعين هذين الرجلين قالت لبعضها بعضاً الكثير مما لا يُعبَّر عنه بالكلمات وبعيداً كل البعد عمّا قاله المترجم، فقد قالت الحقيقة كلها صراحةً دونما كلمات: قالت عينا فورونتسوف إنه لا يصدّق كلمةً واحدة ممّا قاله الحاج مراد وإنه يعلم أنه عدوّ لكلّ ما هو روسيّ، وسيبقى كذلك، وأنه يتمسكن الآن فقط لأنه مضطر إلى ذلك. والحاج مراد فهم هذا ولكنه مع ذلك أكّد ولاءه. أما عينا الحاج مراد فكانتا تقولان إن على هذا العجوز التفكير في وفاته لا في الحرب، وإنه ماكر، رغم شيخوخته، وإنّ عليه أن يكون حذِراً معه. وفورونتسوف أيضاً فهم هذا كله ومع ذلك قال للحاج مراد ما اعتبره ضرورياً لكسب الحرب.

قال فورونتسوف للمترجم (وكان يكلّم الضابط الشاب بصيغة المفرد)[1]:

– قل له إن مليكنا رحيم بقدر ما هو شديد، وأنه قد يعفو عنه بناءً على رجائي ويضمّه إلى خدمته.

ثم سأل وهو ينظر إلى الحاج مراد:

– هل نقلت إليه كلامي؟ وقل له إنني أتعهّد باستقباله وجعل إقامته بيننا طيبة إلى أن يصلني قرار مولاي الكريم.

وضع الحاج مراد يده مرةً أخرى على وسط صدره وقال كلاماً ما بحيوية وحماس.

قال – حسب ما نقل المترجم – إنه فيما مضى، عندما كان يحكم أفاريا، عام 1839، خدم الروس بإخلاص ولم يكن لينقلب عليهم لولا أن عدوه أحمد خان أراد هلاكه فافترى عليه عند الجنرال كلوغيناو.

قال فورونتسوف: «أعلم، أعلم» (مع أنه حتى لو كان يعلم، فقد نسي منذ زمنٍ بعيد) ثم أعاد وهو يجلس ويشير للحاج مراد إلى الأريكة القائمة عند الجدار: «أعلم». لكن الحاج مراد لم يجلس وهزّ كتفيه في إشارة إلى أنه يأبى الجلوس في حضرة إنسان بالغ الشأن مثله، واستطرد مخاطباً المترجم:

– أحمد خان وشامل كلاهما عدوّي. قل للأمير إن أحمد خان قد مات ولا أستطيع الانتقام منه، لكن شامل ما زال حياً ولن أموت قبل أن أثأر منه لنفسي.

(1) من المعتاد التحدث إلى الغرباء وكبار السن أو الأعلى مقاماً بصيغة الجمع (أنتم)، لكن فورونتسوف هنا يتحدث بصيغة المفرد غير المتكلّفة (أنت). هذا الفارق لا يظهر في الترجمة.

قال هذا، عاقداً حاجبيه، ثم أحكم إقفال فمه.

قال فورونتسوف في هدوء: «حسناً حسناً، ولكن كيف يريد أن يثأر لنفسه من شامل؟» ثم أضاف يقول للمترجم: «قل له إنّ بإمكانه الجلوس».

رفض الحاج مراد ثانيةً أن يجلس، وأجاب عن السؤال الذي طُرح عليه بأنه لهذا السبب انتقل إلى جانب الروس، لكي يساعدهم في القضاء على شامل.

أجاب فورونتسوف:

- حسناً، حسناً. ماذا ينوي أن يفعل بالتحديد؟ اجلس، اجلس...

جلس الحاج مراد وقال لو أنهم فقط أرسلوه إلى الجبهة الليزغينية[1]، وأمدّوه بالجنود، فإنه يتعهّد بأن يثير داغستان كلها، وأنّ شامل لن يستطيع أن يصمد بعد ذلك أبداً.

قال فورونتسوف:

- هذا جيد. هذا جيد. سأفكّر في الأمر.

نقل المترجم كلام فورونتسوف إلى الحاج مراد. استغرق الحاج مراد في التفكير، ثم أردف:

- قل للسردار إن أسرتي بين يدَيّ عدوي، وإنّ يدَيَّ مقيّدتان ولا يمكنني خدمته ما دامت أسرتي في الجبال. سوف يقتل زوجتي، ويقتل أمي، ويقتل أبنائي، إذا ما واجهته مباشرةً. فليفتدِ الأمير أسرتي وحسب، فليبادلهم بأسرى، وحينذاك إما أن أقضي على شامل وإما أن أموت دون ذلك.

(1) الليزغين من شعوب القوقاز، وقد سبق ذكرهم. (م)

قال فورونتسوف:

- حسناً، حسناً، سنفكّر في ذلك. أما الآن فليذهب إلى رئيس الأركان ويشرح له بالتفصيل وضعه ومقاصده ورغباته.

بهذا انتهى اللقاء الأول بين الحاج مراد وفورونتسوف.

في مساء اليوم نفسه كانت تُعرض أوبرا إيطالية في المسرح الجديد ذي الطابع الشرقي. كان فورونتسوف في مقصورته في الشرفة العلوية، وفي الصالة لاحت قامة الحاج مراد البارزة، معتمراً عمامته، وهو يعرج. وقد دخل رفقة ياور فورونتسوف، لوريس ميليكوف[1]، الموكل به، وجلس في الصف الأول. بعد أن حضر الحاج الفصل الأول من «الأوبرا»، برزانة إسلامية شرقية، وليس فقط من دون أن تبدو عليه أي دهشة بل بدا عليه عدم الاكتراث، نهض واقفاً وتلفّت إلى النظّارة بهدوء، ثم خرج مسترعياً انتباه المتفرجين جميعاً إليه.

اليوم التالي كان يوم اثنين، وأُقيمت السهرة المعتادة عند آل فورونتسوف. كانت موسيقى هادئة تُعزف في الصالة الكبيرة المُنارة بسطوع في الحديقة الشتوية، وكانت نساء صغيرات السنّ وأخريات تجاوزن سنّ الشباب، في ثياب تكشف أعناقهنّ وأيديهنّ وتقريباً صدورهنّ، يتمايلنَ في أحضان رجالٍ في بذلات رسمية فاخرة. وفي المقصف (البوفيه) كان الخدم، في بذلات «فراك» حمر وكلسات وأخفاف، يصبّون الشمبانيا للسيدات ويقدّمون لهنّ السكاكر.

(1) ميخائيل تاريِيلوفيتش لوريس- ميليكوف (1825-1888): ياور فورنتسوف. أصبح فيما بعد رجلاً مهماً من رجالات الدولة ووزيراً للداخلية. وقد اعتمد تولستوي في الفصول 13-11 لتصوير شخصية الحاج مراد وحياته على مدوّناته التي نُشرت في صحيفة «Русская старина» (العدد 3، سنة 1881). (المحرر الروسي)

وكانت زوجة «السردار» أيضاً، رغم كبر سنّها، تتجول بين الضيوف وهي تبتسم مرحّبةً، وقالت عبر المترجم بضع كلمات لطيفة للحاج مراد الذي كان يرنو إلى الضيوف بعدم الاكتراث نفسه الذي أظهره في المسرح أمس. على أثر صاحبة البيت دنت نساء أخريات سافرات من الحاج مراد وجميعهنّ، دونما حياء، كنّ يقفنَ أمامه، مبتسمات، ويسألنه السؤال نفسه عمّا إذا كان يعجبه ما يرى. فورونتسوف نفسه أيضاً، في كتفيات وحمائل ذهبية، وبالصليب الأبيض في رقبته ووشاحه، توجّه نحوه وسأله السؤال نفسه، ومن الجلي أنه على يقين، مثل كل من سأله، من أنّ الحاج مراد لا يسعه إلا أن يُعجب بكلّ ما يرى. وأجابه الحاج مراد بمثل ما أجاب الجميع؛ أنْ ليس لديهم شيء كهذا، من دون أن يبدي رأيه أو يوضح إن كان عدم وجود ذلك عندهم أمراً حسناً أم سيئاً.

حاول الحاج مراد هنا أيضاً، في حفلة الرقص، التحدث إلى فورونتسوف عن مسألة افتداء أسرته، لكن فورونتسوف ابتعد عنه متظاهراً أنه لم يسمع كلماته. وفيما بعد قال لوريس ميليكوف للحاج مراد إن هذا المكان ليس المكان المناسب للحديث في الأعمال.

عندما دقت الساعة الحادية عشرة، وتحقّق الحاج مراد من الوقت بساعته التي أهدته إياها ماريا فاسيليفنا، سأل لوريس ميليكوف إن كان في وسعه المغادرة، فقال لوريس ميليكوف إنه يستطيع ولكن الأفضل أن يبقى. رغم ذلك لم يبقَ الحاج مراد وغادر بالعربة المكشوفة الموضوعة تحت تصرفه إلى الشقة المخصصة له.

- 11 -

في اليوم الخامس على وجود الحاج مراد في تفليس قَدِم إليه لوريس ميليكوف، ياور المحافظ، بموجب أمر قائد الجيش.

قال الحاج مراد بتعبيره الدبلوماسي المعتاد، مطأطئاً رأسه وواضعاً يده على صدره:

- يُسعِد رأسي وكذلك يدَيّ أن تخدما «السردار».

وأردف ناظراً في عيني لوريس ميليكوف برقّة:

- مُرني.

جلس لوريس ميليكوف على كرسيٍّ بجانب الطاولة، وجلس الحاج مراد على الأريكة الواطئة قبالته، واتكأ بيديه على ركبتيه، وأحنى رأسه وراح يصغي بانتباه إلى ما يقوله لوريس ميليكوف. قال لوريس ميليكوف، الذي يجيد الكلام باللغة التترية بطلاقة، إن الأمير، رغم أنه يعرف ماضي الحاج مراد، يرغب في معرفة القصة كلها منه شخصياً.

قال لوريس ميليكوف:

- أنت تحكي لي، وأنا سأدوّن، ثم أترجم ذلك إلى الروسية، والأمير سيرسل قصتك بعد ذلك إلى الحاكم.

ظل الحاج مراد صامتاً (فهو ليس فقط لم يكن يقاطع المتكلّم قط، بل وكان دائماً ينتظر لعله يقول شيئاً ما بعد)، ثم رفع رأسه وأرجع عمامته إلى الخلف وابتسم ابتسامته الطفولية المميزة، تلك التي أسر بها ماريا فاسيليفنا من قبل، ثم قال: «هذا ممكن»، وكان جلياً أنّ فكرة أنّ الحاكم سيقرأ قصته قد راقته.

قال لوريس ميليكوف وهو يخرج مفكّرةً من جيبه:

- احكِ (باللغة التترية لا يُخاطَب الفرد بضمير الجمع)[1] كل شيء من البداية من دون استعجال.

قال الحاج مراد:

- هذا ممكن، لكن هناك الكثير، الكثير جداً، مما يمكن روايته، فقد جرت أمور كثيرة.

قال لوريس ميليكوف:

- إن لم يكفِ يوم واحد، تكمل في اليوم التالي.

- هل أبدأ من البداية.

- أجل، من البداية: أين ولدت، أين عشت.

طأطأ الحاج مراد رأسه وظل جالساً على هذا النحو طويلاً، ثم تناول عوداً كان ملقًى قرب الأريكة وأخرج سكيناً فولاذية صغيرة، حادة كالشفرة، من تحت خنجره المرصّع بالذهب ذي المقبض العاجي وأخذ ينجر العود ويروي في الوقت نفسه. قال:

- اكتب: ولدت في تسِلماس، وهي قرية جبلية صغيرة بحجم

(1) هذه الملاحظة لتولستوي، وسبق لنا أن أشرنا إلى ذلك في حاشية سابقة.

رأس حمار كما يقال عندنا في الجبال، تبعد عن «هُونزا»، حيث كان يعيش الخانات[1]، مسافة طلقتين. وكانت أسرتنا وثيقة الارتباط بهم، فقد أرضعت أمي أخاهم الأكبر، الخان أبونونتسال، وهذا ما جعلنا وإياهم أقارب. الخانات كانوا ثلاثة: أبونونتسال خان، وهو أخو أخي عثمان في الرضاعة، وأُمَّة خان، أخي في العهد، وبُولاج خان، وهو الأخ الأصغر الذي رماه شامل من على جُرْف. لكن هذا جرى لاحقاً. كنت في الخامسة عشرة عندما بدأ المريدون يجولون في القرى. كانوا يدقّون سيوفهم الخشبية ويصيحون: «إلى الغزو أيها المسلمون!»[2] وقد التحق الشيشان جميعاً بالمريدين، وصار الأفاريون يترددون عليهم. وكنت أعيش آنذاك في القصر، فقد كان الخانات يعتبرونني أخاً لهم: أفعل ما أريد، وهكذا صرت غنياً. كنت أمتلك خيولاً وأسلحة وكانت لي أموال، وكنت أعيش في بحبوحة ولم يكن يشغل بالي شيء. عشت على هذا النحو إلى أن قُتِل قاضي مُلاّ[3] وحلّ حمزة مكانه. بعث حمزة بالرسل إلى الخانات بأنه سيدمّر «هونزا» إن لم يتبنّوا دعوة الجهاد (الغزو). وهنا كان لا بدّ من التفكير. كان الخانات يخشون الروس، ويخشون تبنّي دعوة الجهاد، فأرسلتني الخانم (زوجة الخان) مع ابنها الثاني، أُمَّة خان، إلى تفليس لطلب العون من القائد الروسي الأعلى والحماية من حمزة.

(1) الجمع من «خان»، وهو الأمير، أو زعيم العشيرة. (م)

(2) حرفياً «غزوات يا مسلمين»، والمقصود: «إلى الجهاد أيها المسلمون»، لكن لعدم معرفتهم باللغة العربية إلا اللمم كانوا يستخدمون الكلمة التي سمعوها من الملالي الجهلة مثلهم بالعربية. (م)

(3) قاضي مُلّا أو «قازي مُلا» (1794-1832): أول إمام للشيشان وداغستان. أعلن الجهاد ضد الروس «الكفّار». حاصرته القوات الروسية بقيادة البارون روزِن في غيليرا وقتلته، خلفه في الإمامة حمزة بيك (1789-1834)، الذي خلفه شامل (1797-1871). (محرر النص الروسي)

كان البارون روزِن هو القائد الأعلى، ولم يستقبلني، ولا استقبل أمّة خان. وقد أمر أن يُقال لنا إنه سيساعدنا، لكنه لم يفعل شيئاً. إلا أن ضباطه صاروا يأتون إلينا للعب الورق مع أمّة خان، وكانوا يسقونه النبيذ ويأخذونه إلى أماكن السوء، وخسر أمامهم في الورق كل ما يملك. كان أمّة خان قوياً كثور وشجاعاً كأسد، لكنه كان ركيك النفس كالماء، ولكان خسر آخر ما يملك من خيول وأسلحة لو لم أبعده عنهم. بعد تفليس تغيّر فكري ورحت أقنع الخانم والخانات الشبّان بتبنّي دعوة الجهاد.

سأله لوريس ميليكوف:

– وما سبب تغيّر فكرك؟ ألم يعجبك الروس؟

صمت الحاج مراد، ثم قال جازماً: «أجل، لم يعجبوني» وأغمض عينيه، ثم أردف: «فضلاً عن أنه حدث أمر جعلني أتبنّى دعوة الجهاد».

– أي أمر؟

– على مقربة من تسِلمِس اصطدمنا، أنا والخان، بثلاثة مريدين: فرّ اثنان منهم، والثالث قتلته بالمسدس. وعندما اقتربت منه، كي أنزع عنه أسلحته، كان لا يزال على قيد الحياة. نظر إليّ وقال: «لقد قتلتني، وهذا يسعدني. أنت مسلم، وشاب وقوي. جاهِد. هذا أمر الله».

– وبعد، تقبّلت دعوة الجهاد؟

قال الحاج مراد: «لم أفعل، ولكني صرت أفكّر في الأمر»، ثم تابع سرد قصته:

- لمّا بلغ حمزة مشارف «هونزا» أرسلنا إليه الشيوخ وطلبنا إليهم أن يقولوا له إننا موافقون على المشاركة في الجهاد إذا أرسل لنا رجلاً عالماً يبيّن لنا أحكامه. لكنّ حمزة أمر بحلق شوارب الشيوخ وثقب مناخيرهم وتعليق فطائر بأنوفهم، وإعادتهم إلينا. قال الشيوخ إن حمزة مستعد لإرسال شيخ إلينا يعلّمنا أحكام الجهاد، ولكن شَرْط أن ترسل الخانم إليه ابنها الأصغر رهينة[1]. صدّقت الخانم حمزة وأرسلت إليه ولدها بُولاج خان، فأحسن حمزة استقباله وأرسل يدعو أخويه الكبيرين كذلك. بعث يقول إنه يريد أن يخدم الخانات كما خدم والده والدهم. كانت الخانم امرأةً ضعيفة، غبية، متهوّرة، ككل النساء حين يعشنَ على هواهن، وخافت أن ترسل كلا ولديها فأرسلت أمّة خان وحده. وأنا رافقته. وعلى مسافة «فِرست» استقبلنا المريدون وراحوا ينشدون ويطلقون النار في الهواء محتفين بنا. وعند وصولنا خرج حمزة من خيمته ودنا من ركاب فرس أمّة خان مستقبلاً إياه كخان، وقال: «لم أعمل ببيتكم شرّاً، ولا أنوي ذلك. كل ما أطلبه هو ألاّ تقتلني ولا تمنعني عن دعوة الناس إلى الجهاد، ولسوف أخدمك مع جيشي كله كما خدم والدي والدك. اسمح لي بالعيش في دارك، أقدّم إليك المشورة، ولتفعل ما شئت». كان أمّة خان بليداً في الكلام ولم يدرِ ما يقول، فظلّ صامتاً. عندها قلت إن كان الأمر كذلك فليحضر حمزة إلى هونزا، ولسوف يستقبله الخان والخانم بالتشريف. لكن لم يُسمَح لي بإتمام كلامي، وكانت تلك المرة الأولى التي أواجه فيها شامل، فقد كان هناك، إلى جوار

(1) يستخدم تولستوي كلمة «أمانة» العربية بمعنى «رهينة»، والأرجح أن هذا هو معناها عند شعوب القوقاز، وعنهم أخذ تولستوي. (م)

الإمام. قال لي: «لم تُسأل أنت، بل الخان»، فسكتُّ، وقاد حمزة أمّة خان إلى داخل الخيمة. بعد ذلك استدعاني حمزة وأمرني بالعودة إلى هونزا مع مبعوثيه، فقفلت راجعاً. أخذ رسل حمزة يحاولون إقناع الخانم الأم بإرسال ابنها الأكبر معهم. رأيت أن هناك غدراً فقلت للخانم ألاّ ترسل ابنها، غير أنّ المرأة لديها من العقل في رأسها بقدر ما على البيضة من الشعر. وقد وثقت بهم الخانم وأمرت ابنها بالذهاب معهم، لكن أبونونتسال لم يرغب في ذلك، وإذّاك قالت له: «أرى أنك خائف». لقد عرفت، كالنحلة، كيف تلدغه في أشدّ الأماكن إيلاماً. احمرّ وجه أبونونتسال ولم يقل المزيد، وأمر بالإعداد للأمر، ورافقته. استقبلنا حمزة بأحسن مما استقبل أمّة خان، فقد خرج لاستقبالنا عند سفح الجبل على مسافة طلقتين، وخرج في إثره فرسان يحملون الأعلام وهم يهتفون «لا إله إلا الله» ويطلقون الأعيرة النارية ويحفّون بنا مرحّبين. وعند وصولنا إلى المعسكر قاد حمزة الخان إلى داخل الخيمة، وأنا بقيت مع الخيول. كنت أسفل الجبل عندما بدأ إطلاق النار داخل خيمة حمزة، فهرعت إلى الخيمة ورأيت أمّة خان منكباً على وجهه في بركةٍ من الدماء، وأبونونتسال يقاتل المريدين، وكان نصف وجهه مقطوعاً ومتدلياً، فكان يمسك به بيد وبالأخرى يطعن بخنجره كل من يقترب منه، وقد جندل أخا حمزة على مرأى مني وانقضّ على آخر، لكن المريدين سارعوا إلى إطلاق النار عليه فسقط صريعاً.

وهنا توقف الحاج مراد عن الكلام، وقد احمرّ وجهه المضطرم بشدة واحتقنت عيناه بالدم، ثم أردف:

- تملكني الخوف وولّيت هارباً.

فقال لوريس ميليكوف:

- هكذا إذن؟ كنت أظن أنك لم تخف من شيء قط.

- لم أخف بعد ذلك أبداً؛ ما زال ذلك العار ماثلاً في ذاكرتي منذ ذلك الوقت، وحين تعاودني تلك الذكرى لا أعود أخشى شيئاً.

- 12 -

«يكفي هذا. حان وقت الصلاة»، قال الحاج مراد وهو يخرج من الجيب الداخلي العلوي لسترته الشركسية ساعة فورونتسوف، ثم ضغط الزنبرك بعناية وأرجع رأسه إلى الخلف وراح يصغي إلى دقات الساعة كابحاً ضحكته الطفولية. دقّتْ الساعة مشيرةً إلى الثانية عشرة والربع.

قال الحاج مراد باسماً:

– أهداني إياها صديقي فورونتسوف. إنه إنسان جيد.

فقال لوريس ميليكوف:

– نعم جيد، والساعة جيدة. صلِّ إذن، وأنا سأنتظر.

– حسناً، قال الحاج مراد ومضى إلى مخدعه.

حين بقي بمفرده دوّن لوريس ميليكوف في دفتره أهم ما رواه الحاج مراد له، ثم دخّن لفافة تبغ وأخذ يتمشّى في الغرفة جيئةً وذهاباً. ولمّا دنا من باب غرفة النوم المقابلة تناهت إليه أصوات أناسٍ يتحدثون عن أمرٍ ما بحيويةٍ وحماسة باللغة التترية. حزر أنهم مريدو الحاج مراد، ففتح الباب ودخل عليهم.

كانت الغرفة تفوح بتلك الرائحة الجلدية الحمضية التي تميّز الجبليين، وكان حمزالو الأحول الأصهب جالساً على طيلسان مبسوط على الأرض قرب النافذة، في قميصٍ مهلهل ملطّخ بالدهن، ويعقد لجاماً. وكان يقول شيئاً ما بحرارة بصوته الأجش، إلا أنه صمت فور دخول لوريس ميليكوف وتابع عمله من دون أن يعيره أيّ اهتمام. وكان يقف قبالته خان مَحمه المرح، وهو يعيد ويكرّر الكلام نفسه، كاشفاً عن أسنانه البيض في ابتسامة وعيناه السوداوان المجردتان من الأهداب تبرقان. وكان إلدار الوسيم ينظف حزام سرجٍ معلّقٍ على مسمار وقد شمّر كمّيه عن ساعديه القويين. أما حنيفي، العامل الرئيس ومسؤول التموين، فلم يكن في الغرفة؛ فقد كان يعدّ الغداء في المطبخ.

سأل لوريس ميليكوف خان محمه وهو يسلّم عليه:

- فيمَ كنتم تتجادلون؟

قال خان محمد وهو يصافح لوريس ميليكوف:

- إنه لا ينفكّ يمتدح شامل. يقول إنه رجل عظيم، وإنه عالم ووليّ وشهم.

- فكيف يهجره إذن ويظل يمتدحه مع ذلك؟

فقال خان محمه كاشفاً عن أسنانه وغامزاً بعينه:

- تركه، ومع ذلك يمتدحه.

سأل لوريس ميليكوف:

- وهل يعتبره ولياً حقاً؟

فسارع حمزالو يقول:

- لو لم يكن ولياً لما استمع إليه الناس.

فقال خان محمه:

- الولي ليس شامل بل منصور[1]، فقد كان ولياً حقاً. وعندما كان هو الإمام كان الناس غيرهم الآن. كان يجول في القرى، وكان الناس يخرجون إليه ويقبّلون سترته ويتوبون على يديه عن خطاياهم ويقسمون على عدم ارتكاب السيئ من الأعمال. يقول كبار السن إن الناس جميعاً آنذاك كانوا يعيشون كالأولياء، فكانوا لا يدخنون ولا يشربون الخمر، ولا يفوّتون الصلوات، ويعفون عن الإساءة، بل حتى الثأر كانوا يغفرونه. آنذاك كان أحدهم إذا عثر على مالٍ أو غرض يشدّه على وتد وينصبه على قارعة الطريق. في تلك الأيام، حتى الله كان يوفّق الناس في كل شيء، لا كأيام شامل هذه.

قال حمزالو:

- والآن أيضاً لا يشربون ولا يدخنون في الجبال.

فقال خان محمه وهو يغمز لوريس ميليكوف:

- شاملك هذا لاموروي.

كانت كلمة «لاموروي» تسمية تُطلق على الجبليين فيها ازدراء واحتقار.

أجاب حمزالو:

- فليكن، الجبلي لاموروي، ولكن الجبال مأوى النسور.

(1) الإمام منصور محمد: كان واعظاً وداعية ذائع الصيت في القوقاز. قاوم الاحتلال الروسي للقوقاز من 1780 إلى 1791، حيث وقع في الأسر ثم مات في سجن سليسبرغ عام 1794.

فقال خان محمه كاشفاً عن أسنانه وقد سرّه جواب خصمه الحاذق:

- عفارم عليك! ضربة موفّقة.

حين رأى خان محمه علبة لفائف التبغ الفضية في يد لوريس ميليكوف طلب منه لفافةً، ولمّا قال لوريس ميليكوف إن التدخين ممنوع عليهم غمز بإحدى عينيه مشيراً برأسه إلى مخدع الحاج مراد وقال إن التدخين ممكن مادام لا يراهم، وعلى الفور أخذ يدخن من دون أن يستنشق الدخان وماطّاً شفتيه الحمراوين بشكل أخرق عند نفث الدخان.

«هذا حرام!» قال حمزالو وغادر الغرفة. غمز خان محمه مومئاً إليه وأخذ يستفهم من لوريس ميليكوف، وهو يدخن، عن أفضل مكان يمكنه فيه شراء قفطان من الحرير وطاقية بيضاء من الفراء.

- ماذا، وهل لديك الكثير من المال لأجل ذلك؟

فقال خان محمه غامزاً بعينه:

- لديّ ما يكفي.

قال إلدار ملتفتاً برأسه الباسم الجميل نحو لوريس:

- اسأله من أين له المال.

«ربحته» سارع خان محمه يقول، وراح يروي كيف أنه أمس، بينما كان يتجول في تفليس، صادف جماعة من الناس، مراسلي ضباط روس وبعض الأرمن، يلعبون الأورليانكا[1]، وكان الرهان

---

(1) الاورليانكا: هي لعبة «طرّة أم نقش» المعروفة على وجهَيْ قطعة معدنية كالعملة. (م)

كبيراً: ثلاث ليرات ذهبية والكثير من الفضة. فهم خان محمه ماهية اللعبة فوراً وتوسّط حلقة اللاعبين، وهو يخشخش بالنقود النحاسية التي في جيبه، وقال إنه يراهن على المال كله.

سأل لوريس ميليكوف:

- كيف على المال كله؟ أكان معك هذا القدر من المال؟

فقال خان محمه كاشفاً عن أسنانه في ابتسامة:

- لم يكن معي إلا اثنا عشر كوبيكاً.

- وماذا لو خسرت؟

فقال خان محمه مشيراً إلى مسدسه: «وهذا».

- أكنت أعطيتهم مسدسك؟

- لماذا أعطيهم مسدسي؟ كنت سأفرّ هارباً، وإن حاول أحدهم الإمساك بي قتلته، وكفى.

- وماذا، هل كسبت؟

- أي نعم، كسبت المال كله وغادرت.

أدرك لوريس ميليكوف أي نوع من الرجال خان محمه وإلدار. خان محمه كان شخصاً مرحاً، محباً للهو، لا يدري ماذا يفعل بحيويته الفائضة، دائم المرح، يعبث بحياته وحياة الآخرين، وبسبب عبثه هذا بالحياة انتقل الآن إلى جانب الروس، وبالطريقة نفسها تماماً يمكنه، أيضاً من باب العبث، العودة والالتحاق بشامل ثانيةً. أما إلدار فكان شخصاً واضحاً ومفهوماً تماماً: كان رجلاً مخلصاً كلياً لمرشده، هادئاً وقوياً وصلباً. حمزالو الأصهب فقط لم يكن مفهوماً للوريس

ميليكوف، فهو لم يكن مخلصاً لشامل فحسب، بل وكان يكنّ الاشمئزاز والازدراء والنفور والكره تجاه الروس جميعاً؛ ولهذا لم يستطع لوريس ميليكوف فهم سبب انتقاله إلى صف الروس. وقد خطر للوريس ميليكوف، وشاطره ذلك بعض القادة الآخرين، أن انشقاق الحاج مراد عن شامل، وحكاياته عن العداوة بينهما، كان كذباً محضاً، وأنه لم ينتقل إلى جانب الروس إلا ليستكشف مواطن الضعف لدى الروس لكي يوجّه قواته إلى مواطن الضعف تلك بعد فراره ثانيةً إلى الجبال. وحمزالو بكل ما فيه يؤكد هذا الاعتقاد. كان لوزيس ميليكوف يقول في سرّه: «أولئك، والحاج مراد نفسه، يجيدون إخفاء نواياهم، لكنّ هذا تفضحه كراهيته المكشوفة».

حاول لوريس ميليكوف التحدث إليه فسأله إن كان ضجراً هنا، لكن حمزالو، من دون أن يترك ما في يديه من شغل، دمدم بصوتٍ أجشّ متقطع وهو يرمق لوريس ميليكوف بطرف عينه الوحيدة:

- كلا، لست ضجراً.

وأجاب بالطريقة نفسها عن كل أسئلته الأخرى.

وبينما كان لوريس ميليكوف في غرفة مرافقي الحاج مراد دخل مريده الرابع، حنيفي الأفاري، بوجهه وعنقه غزيرَيْ الشعر وصدره البارز المغطّى بشعرٍ أشعث كأنه فروة. كان حنيفي عاملاً صارماً ضخم البنية دائم الانهماك في عمله، وكان، مثل إلدار، يطيع سيده طاعةً عمياء.

لمّا دخل الغرفة من أجل الرز استوقفه لوريس ميليكوف وسأله من أين هو وكم مضى عليه في خدمة الحاج مراد.

أجاب حنيفي عن سؤال لوريس ميليكوف قائلاً:

- منذ خمس سنوات، وأنا وإياه من القرية نفسها.

ثم قال، وهو يرمق وجه لوريس ميليكوف من تحت حاجبيه الملتحمين، في هدوء:

- قتل والدي عمَّه، فأرادوا قتلي بدورهم. إذّاك سألتهم أن يتّخذوني أخاً لهم.

- ما معنى أن يتّخذوك أخاً؟

- لم أحلق شعري مدة شهرين، ولم أقصّ أظافري، ثم ذهبت إليهم، فأدخلوني على أمه فاطمة، فأرضعتني من ثديها، وهكذا صرت أخاً له.

تناهى صوت الحاج مراد من الغرفة المجاورة فأدرك إلدار فوراً أنّ الحاج مراد يناديه، فنشّف يديه وهرع إلى غرفة الاستقبال بخطى واسعة. ولمّا عاد قال:

- إنه يستدعيك إليه.

أعطى لوريس ميليكوف خان محمه المرح لفافة تبغ أخرى ومضى إلى غرفة الاستقبال.

- 13 -

حين دخل لوريس ميليكوف غرفة الاستقبال لاقاه الحاج مراد باشّ الوجه وسأله وهو يجلس على الأريكة:

– هل نواصل إذن؟

فقال لوريس ميليكوف:

– أجل، من كل بدّ. لقد كنت عند مرافقيك، وتحدثت إليهم.

ثم أضاف:

– أحدهم شاب مرح.

فقال الحاج مراد:

– نعم، خان محمه شخص خفيف الظلّ.

– لكن أعجبني الشاب، الوسيم.

– آه، إلدار. إنه شاب، لكنه صلب كالحديد.

صمتا.

– فهل أتابع إذن؟

– أجل، أجل.

فشرع الحاج مراد يقول:

- لقد أخبرتك كيف قُتل الخانات. وبعد مقتلهم دخل حمزة هونزا وأقام في قصرهم. ظلّت الخانم الأم، فاستدعاها حمزة فأخذت توبّخه، فأومأ حمزة لمريده أصِلدار، فطعنها من الخلف وقتلها.

سأل لوريس ميليكوف:

- لكن لماذا قتلها؟

- وكيف له ألاّ يفعل: «تسلّلتَ بقدميك الأماميتين، تسلّلْ بالخلفيتين أيضاً»[1]. كان لا بدّ من إفناء السلالة برمّتها. وهكذا كان. كما قتل شامل الابن الأصغر، رماه عن جُرف. وقد خضعت أفاريا كلها لحمزة، إلا أنني وأخي رفضنا الخضوع. كان لا بدّ أن نثأر للخانات. لذا تظاهرنا بالخضوع، ولكننا لم نكن نفكّر إلاّ في كيفية الثأر منه. استشرنا جدنا، وقررنا الانتظار إلى حين مغادرته القصر، فنكمن له ونقتله، لكن ثمة من كان يتنصّت علينا وأبلغ حمزة، فاستدعى جدنا إليه وقال له: «اسمع، إن صحّ أنّ حفيديك يدبّران لي مكيدة فسأعلّقكم ثلاثتكم على العارضة نفسها. إنني أنفّذ مشيئة الله، ولن يستطيع أحد منعي. اذهب ولكن تذكّر ما قلت لك». عاد جدي إلى البيت وأخبرنا بما جرى، وإذّاك قرّرنا عدم التريّث والقيام بما عزمنا عليه في أول أيام عيد الأضحى في المسجد. لكن رفاقنا رفضوا المشاركة في الأمر، ولم يبقَ سوانا أنا وأخي، فأخذ كلٌّ منا غدّارتين، وارتدينا بردتينا، وذهبنا إلى المسجد. دخل حمزة يرافقه

(1) مأثور شعبي يشير إلى وجوب إتمام العمل الذي بدأه المرء.

ثلاثون مريداً، وكان الجميع ممتشقين سيوفهم. وبجوار حمزة كان يمشي أصلدار، مريده المفضّل، ذاك الذي قطع رأس الخانم، فلمّا رآنا صرخ فينا طالباً أن نخلع بردتينا، وتوجّه نحوي. كان خنجري بيدي، فقتلته وهجمت على حمزة، لكن أخي عثمان سبقني وأطلق النار عليه، لكنه لم يمت وانقضّ على أخي بخنجره، فعاجلته بضربة على رأسه أجهزت عليه. كانوا ثلاثين مريداً، وكنا اثنين فقط. وقد تمكّنوا من أخي عثمان فقتلوه، أما أنا فصددتهم وقفزت من النافذة ووليّت هارباً. وحين سمع الناس بمقتل حمزة ثاروا جميعاً، ففرّ المريدون، وأولئك الذين لم يهربوا قتلوهم جميعاً.

توقف الحاج مراد وتنهّد تنهيدةً عميقة، ثم استطرد يقول:

- كان هذا كله حسناً، لكنّ كل شيء فسد فيما بعد. فقد خلف شامل حمزة، فأوفد مبعوثيه إليّ بأن عليّ مرافقته لقتال الروس؛ وأنه سيدمّر هونزا ويقتلني إن امتنعت. فأجبته بأنني لن أذهب إليه ولن أُتيح له الوصول إلي.

فسأل لوريس ميليكوف:

- ولِمَ لم تذهب إليه؟

تجهّم الحاج مراد ولم يجب فوراً.

- لم يكن ذلك ممكناً. إذ كان في رقبة شامل دم أخي عثمان ودم أبونونتسال خان. لذا لم أذهب إليه. أرسل إليّ الجنرال روزِن رتبة ضابط وأمر بأن أصبح حاكم أفاريا. كان قميناً بهذا كله أن يكون جيداً لولا أن الجنرال روزِن عيّن في البداية خان قازيكوميخ، محمد ميرزا، ومن بعده أحمد خان، حاكماً على أفاريا. وكان هذا الأخير

يبغضني أشد البغض. فقط خطب لابنه ابنة الخانم، سلطانة، فلم يعطوه إياها، فظنّ أنني السبب في ذلك. كان يكرهني، وأرسل أتباعه لقتلي، ولكني نجوت منهم. وحينئذٍ وشى بي لدى الجنرال كلوغيناو قائلاً إنني آمر الأفاريين بعدم إعطاء الحطب للجنود الروس، وقال له أيضاً إنني اعتمرت عمامة، هذه العمامة – قال الحاج مراد مشيراً إلى عمامته – وأنّ هذا معناه أنني انحزت إلى شامل. الجنرال لم يصدّقه وأمر بعدم المساس بي، ولكن بعد ذهابه إلى تفليس فعل أحمد خان ما بدا له: جاء على رأس سرية من الجند فقبض عليّ وقيّدني بالسلاسل وربطني إلى مدفع. تركوني على هذه الحال ستة أيام، وفي اليوم السابع حلّوا وثاقي وساقوني إلى تميرخان شورا. ساقني إلى هناك أربعون جندياً ببنادق مذخّرة. كانت يداي موثقتين، وكان الأمر للجنود أن يقتلوني إن حاولتُ الهرب، وكنتُ أعرف ذلك. ولمّا شارفنا على الوصول، كانت ثمة درب ضيقة قرب «موكسوخ»، وعلى يمينها وادٍ بعمق خمسة عشر «ساجيناً»، فأفلتُّ من الجنود وركضت إلى حافة الجُرف. أراد أحد الجنود إيقافي لكني قفزت إلى أسفل وسحبته معي فلقي مصرعه، فيما نجوت أنا كما ترى. أضلاعي ورأسي ويداي ورجلاي، كلها تحطّمت. حاولت أن أزحف لكني لم أستطع. شعرت بدوار وغفوت. ثم استيقظت مبللاً بدمي. رآني راعٍ فنادى الناس فحملوني إلى القرية. برئت أضلاعي ورأسي، وساقي أيضاً، لكنها صارت أقصر من الأخرى.

مدّ الحاج مراد ساقه الملتوية وقال:

– ما زالت تخدمني، وهذا أيضاً حسن. علم الناس بالأمر

وأخذوا يفدون إليّ. وبعد أن برئت ذهبت إلى تسلمِس. طلب إليّ الأفاريون ثانيةً أن أغدو حاكماً عليهم، - وقال الحاج مراد باعتزازٍ واثقٍ مطمئنّ: - وأنا وافقت.

ثم نهض واقفاً بسرعة وأخرج حقيبةً من خرج وتناول منها رسالتين حال لونهما إلى الاصفرار وأعطاهما للوريس ميليكوف. كانت الرسالتان من الجنرال كلوغيناو. قرأهما لوريس ميليكوف.

وَرَد في الرسالة الأولى:

«إلى الملازم ثانٍ الحاج مراد! لقد خدمتَ تحت قيادتي، وكنت راضياً عنك وعددتك رجلاً طيباً. وقد أبلغني الرائد أحمد خان بأنك خائن، وأنك اعتمرت عمامة وتتعامل مع شامل، وأنك تدعو الناس إلى عدم طاعة القيادة الروسية. لذا أمرت باعتقالك وإحضارك إليّ، لكنك هربت، ولا أدري إن كان هذا لخيرك أم لا، لأني لا أعلم إن كنت مذنباً حقاً أم بريئاً. والآن استمع إليّ: إن كنت نقيّ السريرة تجاه القيصر العظيم، ولست مذنباً في شيء، فاحضر إليّ. لا تخشَ أحداً، فأنا حاميك. والخان لن يمسّك بأي سوء، فهو نفسه تحت إمرتي. لذا ليس هناك ما تخشاه».

وأضاف كلوغيناو أنه لم ينكث عهده قط، وأنه كان عادلاً دائماً، ونصح الحاج مراد مرةً أخرى بالذهاب إليه.

بعد أن أنهى لوريس ميليكوف قراءة الرسالة الأولى أخرج الحاج مراد الرسالة الأخرى، ولكن قبل أن يعطيه إياها أخبره بجوابه على الرسالة الأولى.

- كتبت إليه بأني لم ألبس العمامة لأجل شامل وإنما للنجاة

بنفسي، وأنني لا أريد ولا أستطيع الانضمام إلى شامل لأنه السبب في مقتل أبي وإخوتي وأقاربي، وأنني لا أستطيع الالتحاق بالروس أيضاً، ذلك أنهم أهانوني. ففي هونزا، بينما كنت مقيّداً، بصق عليّ أحد الأوغاد. ولا يمكنني الانضمام إليكم ما لم يُقتل ذاك الرجل. والأهم هو أنني أخشى أحمد خان الكذّاب. وعند ذاك أرسل إليّ الجنرال هذه الرسالة.

قال الحاج مراد ذلك وهو يناول لوريس ميليكوف ورقة صغيرة أخرى.

شرع لوريس ميليكوف يقرأ:

«لقد أجبت على رسالتي، فشكراً. تقول إنك لا تخشى العودة، وأنّ الإهانة التي ألحقها بك كافرٌ ما تمنعك عن ذلك؛ لكنني أؤكد لك أنّ القانون الروسي عادل، وسترى بأمّ عينيك عقوبة ذاك الذي جرؤ على إهانتك، وقد سبق لي أن أمرت بتقصّي الأمر. استمع إليّ يا حاج مراد. يحقّ لي ألاّ أكون راضياً عنك، لأنك لا تصدقني ولا تثق بكلمة الشرف التي أعطيتك إياها، ولكني أسامحك لمعرفتي بالريبة التي تطبع الجبليين عموماً. فإن كنت نقيّ السريرة ولم تلبس العمامة إلا لكي تنجو بنفسك، فأنت محق ويمكنك أن تنظر بجسارة في عين القيادة الروسية وعيني؛ أما ذاك الذي أهانك فإني أؤكد لك أنه سيعاقَب، وستُردّ إليك أملاكك، ولسوف ترى وتعرف ماذا يعني القانون الروسي. فضلاً عن أنّ الروس لهم نظرة مختلفة إلى الأمر كله؛ وأنت لم تسقط في أعينهم لأن وغداً ما أهانك. وقد سمحت،

أنا لنفسي، للغيمرين[1] بلبس العمائم وانظر إلى أعمالهم كما ينبغي؛ وبالتالي، أعيد وأكرّر، ليس هناك ما تخشاه. تعال إليّ برفقة الشخص الذي سأرسله إليك الآن؛ فهو مخلص لي، كما أنه ليس عبداً لأعدائك، وإنما هو صديق رجلٍ يتمتع بحظوة خاصة عند الحكومة».

ثم يحاول كلوغيناو ثانيةً إقناع الحاج مراد بالذهاب إليه.

قال الحاج مراد حين أنهى لوريس ميليكوف قراءة الرسالة:

– لم أصدّق كلام كلوغيناو ولم أذهب إليه. فالمهم بالنسبة إليّ كان أن أنتقم من أحمد خان، ولم يكن في مقدوري القيام بذلك عبر الروس. وفي هذه الأثناء طوّق أحمد خان تسِلمِس وأراد القبض عليّ أو قتلي، وكان عندي القليل من الرجال، ولم أكن قادراً على صدّه. وفي ذلك الوقت بالذات جاءني مبعوث من شامل حاملاً رسالة. وقد وعدني شامل بالمساعدة على الخلاص من أحمد خان وقتله وأن يوليني حكم أفاريا كلها. فكّرت طويلاً في الأمر ثم التحقت بشامل، ومنذ ذلك الحين وأنا أقاتل الروس بلا توقف.

ثم روى الحاج مراد كل أعماله الحربية. كانت كثيرة جداً، وكان لوريس ميليكوف يعرفها نوعاً ما. كانت حملاته وغاراته مذهلة من حيث سرعتها غير العادية والجرأة في الهجمات، وكانت تُكلّل بالنجاح دائماً.

وقال الحاج مراد في ختام قصته:

– لم نكن، أنا وشامل، صديقين يوماً، لكنه كان يخشى جانبي ويحتاجني. لكن صادف أن سألني بعضهم عمّن سيخلف شامل في

(1) من شعوب شرق القوقاز.

الإمامة، فقلت إن الإمام سيكون صاحب السيف الأمضى. وقد نُقل كلامي إلى شامل فأراد التخلص مني، فأرسلني إلى «تاباساران»، فذهبت وغنمت ألف رأس من الغنم وثلاثمئة فرس. فقال إنني لم أتصرّف كما ينبغي، وعزلني من منصبي كنائبٍ له، وأمرني بإرسال الأموال كلها له، فأرسلت له ألف ليرة ذهبية، فأرسل مريديه إليّ واستولى على كل ما أملك، وطلب أن أذهب إليه. أدركت أنه ينوي قتلي، فلم أذهب. ثم أرسل ينوي أسري، لكني تمكنت من الفرار والتحقت بفورونتسوف، إلا أنني لم آخذ أسرتي، لذلك فإن أمي وزوجتي وابني عنده الآن. قل للسردار: ما دامت أسرتي هناك فلا يمكنني عمل شيء.

فقال لوريس ميليكوف: سأخبره.

– تدبّر الأمر، حاول جاهداً. سأعطيك كل ما أملك، فقط أعنّي لدى الأمير، فأنا مقيّد وطرف الحبل في يد شامل.

بهذه الكلمات ختم الحاج مراد رواية قصته للوريس ميليكوف.

- 14 -

في العشرين من شهر كانون الأول كتب فورونتسوف إلى وزير الحربية تشيرنيشيف الرسالة التالية[1]، وكانت باللغة الفرنسية:

«لم أكتب إليك بالبريد الأخير، أيها الأمير العزيز، آملاً أن نقرر أولاً ماذا علينا أن نفعل بالحاج مراد، كما أنني أشعر أن صحتي ليست على ما يرام في اليومين الأخيرين. أنبأتكم في رسالتي الأخيرة بوصول الحاج مراد؛ فقد وصل تفليس في الثامن من الشهر الجاري، وفي اليوم التالي تعرفت إليه، وخلال سبعة أو ثمانية أيام كنت أتحدّث إليه وأفكّر في ما يمكنه أن يفعل لأجلنا لاحقاً، وبخاصة في ما علينا أن نفعل الآن، ذلك أنه مهموم بشدة حول مصير أسرته ويقول بمنتهى الصراحة إنه، ما دامت أسرته في يدي شامل، فهو مشلول الحركة وليس في مقدوره أن يخدمنا ولا أن يردّ لنا الجميل على الاستقبال اللطيف والعفو اللذين أظهرناهما له. وإن الحيرة التي تتملّكه بسبب ذويه العزيزين عليه تثير قلقه، والأشخاص الذين عيّنتُهم للإقامة معه يؤكّدون لي أنه لا ينام الليل، ويكاد لا

(1) رسالة فورنتسوف إلى تشرنيشيف الواردة في الرواية مزيّفة، وقد ترجمها تولستوي من اللغة الفرنسية. (محرر الأصل الروسي)

يأكل شيئاً، وأنه يصلّي باستمرار ولا يطلب إلّا أن يؤذن له بالتنزّه بجواده مع بعض القوزاق، وهي التسلية والحركة الوحيدة المتاحة له، والضرورية له بحكم العادة لسنوات طويلة. وهو يأتيني كل يوم ليعرف إن كانت لديّ أيّ أنباء عن أسرته، وليسألني أن آمر بجمع كل الأسرى، الذين في أيدينا، من كل الجبهات ومبادلتهم بأسرته، مضيفاً إلى ذلك القليل من المال. ثمة أناس مستعدون لإعادة أسرته إليه لقاء ذلك. وهو لا ينفك يردّد على مسمعي: أنقذوا أسرتي وبعد ذلك أعطوني فرصة لأخدمكم (الأفضل، في رأيه، هو شنّ الهجوم على الجبهة الليزغينية)، وإن لم أقدّم لكم خدمة كبرى خلال شهر فأنزلوا بي العقوبة التي ترونها.

أجبته أنّ هذا كله يبدو لي عادلاً تماماً، وأنّ لدينا أيضاً أشخاصاً كثيرين لن يثقوا به إن ظلّت أسرته في الجبال، لا عندنا كرهينة؛ وأنني سأبذل كل ما في وسعي لجمع الأسرى الموجودين على حدودنا، وأنني سأعطيه مالاً لأجل الفدية، رغم أنه لا يحق لي بموجب قانوننا، بالإضافة إلى المبلغ الذي سيتدبّره هو، وأنني قد أجد وسائل أخرى لمساعدته. بعد ذلك قلت له رأيي صراحةً، بأن شامل لن يعيد إليه أسرته بأي حالٍ من الأحوال، وأنه ربما يعلن له ذلك صراحةً، فيعده بعفوٍ تام وباستعادة مناصبه السابقة، أو يهدّده بقتل أمه وزوجته وأبناءه الستة في حال لم يعد. وسألته أن يصارحني ماذا سيفعل إن تلقّى شيئاً كهذا من شامل، فرفع عينيه ويديه إلى السماء وقال إن كل شيء بيد الله، إلا أنه لن يسلّم نفسه لعدوّه أبداً لأنه واثق تماماً بأن شامل لن يغفر له، وأنه لن يبقى طويلاً على قيد الحياة حينذاك. أما فيما يتعلق بإهلاك أسرته ففي رأيه أن شامل لن يتصرّف بهذه الرعونة:

أولاً، حتى لا يجعل منه عدواً أشدّ خطورةً واستماتة؛ وثانياً، لأن في داغستان الكثير من الشخصيات الأعلى شأناً والأكثر تأثيراً من شامل، وسيردّونه عن ذلك. وأخيراً، أعاد مراراً أنه مهما كان قضاء الله وقدره في المستقبل فإنه الآن لا يشغله إلا فكرة افتداء أسرته، وهو يتوسّل إليّ، باسم الله، أن أعينه وأسمح له بالعودة إلى أرض الشيشان، حيث يمكنه - من خلال قادتنا وبمساعدتهم - التواصل مع عائلته، وتلقّي الأنباء باستمرار عن وضعهم الفعلي، وإيجاد وسيلة لتحريرهم؛ وأن الكثير من الشخصيات، بل وبعض القادة (النواب[1])، في تلك المنطقة المعادية من البلاد على صلةٍ به بشكل أو بآخر؛ وأنه يسهل عليه، بمساعدتنا، توطيد علاقات، سواء مع السكان الخاضعين للروس أو الذين في المناطق المحايدة. علاقات مفيدة جداً من أجل بلوغ الهدف الذي يسعى إليه ليلاً نهاراً، والذي يطمئنه تحقيقه أيّما اطمئنان ويتيح له العمل لصالحنا وكسب ثقتنا. إنه يطلب إعادته إلى غروزني مع خفّارة مؤلّفة من عشرين أو ثلاثين من الفرسان القوزاق الشجعان، يخدمونه بحمايته من الأعداء، ويخدموننا عبر التأكد من صدق نواياه.

أرجو أن تدرك، أيها الأمير العزيز، أنّ هذا كله أوقعني في حيرة شديدة، فمهما فعلت فإن ثمة مسؤولية كبرى تقع على عاتقي. إنه لمنتهى الطيش أن نمحضه كامل ثقتنا؛ ولكن إن أردنا تجريده سبل الهرب فيجب علينا حبسه، وأرى أن هذا غير منصف ويفتقر إلى الحنكة السياسية. إذ إن إجراءً كهذا سرعان ما ينتشر

(1) يستخدم تولستوي الكلمة العربية (نايب) «نائب»، ويبدو أن معاوني شامل كانوا يسمّون نواباً.

نبأه في داغستان كلها، وسيضرّ بنا أشدّ الضرر هناك، فهو سيجعل كل أولئك (وهم كثر) المستعدين لمناوأة شامل، سراً أو علانيةً، يستنكفون عن ذلك، ويجعلنا نفقد أولئك المهتمين جداً بحال أشدّ أعوان الإمام جسارةً وأكثرهم شهامةً، الذي وجد نفسه مضطراً إلى الاستسلام لنا. فإن نحن عاملنا الحاج مراد معاملة الأسير فإننا بذلك سنفقد كل التأثير الطيب لخيانته شامل. لذا أعتقد أنني ما كان بمقدوري إلا أن أتصرّف كما تصرّفت، رغم شعوري بأنني قد أُتّهم بارتكاب غلطة كبيرة فيما لو فكّر الحاج مراد في التخلّي عنا ثانيةً. يصعب في الخدمة، في أمور معقدة كهذه، إن لم نقل يستحيل، سلوك طريق مستقيم وحيد دون المجازفة بارتكاب الأخطاء ودون تحمّل المسؤولية؛ لكن ما دام الطريق يبدو مستقيماً فلا بدّ من السير فيه، وليكن ما يكون.

أرجو، أيها الأمير العزيز، أن تعرض هذا على جلالة مولانا الإمبراطور لينظر فيه، وسأكون سعيداً إن تكرّم مولانا المعظّم وصادق على تصرّفي. ولقد كتبت كل ما كتبت إليك أعلاه إلى الجنرالين زافادوفسكي وكوزلوفسكي أيضاً، لأجل التواصل المباشر بين كوزلوفسكي والحاج مراد، الذي حذّرته من القيام بأي شيء أو الذهاب إلى أيّ مكان من دون موافقة الأخير، وقلت له أيضاً إن الأفضل لنا أن يغادر راكباً مع خفّارتنا، وإلا أشاع شامل بأننا نحتفظ بالحاج مراد سجيناً؛ ولكني أخذت منه وعداً بألاّ يذهب أبداً إلى «فوزدفيجنسك»، ذلك أنّ ابني، الذي استسلم له الحاج مراد أولاً ويعتبره صديقه، ليس قائد ذلك الموقع، وقد يحدث سوء فهم. وبالمناسبة، «فوزدفيجنسك» قريبة جداً من بلدة معادية لنا كثيرة

السكان، بينما غروزني أفضل من كل النواحي للتواصل الذي يأمله مع أصدقائه المخلصين.

عدا عن القوزاق العشرين المختارين الذين، بناءً على طلبه، لن يتخلّفوا عنه ولو خطوة واحدة، أرسلت أيضاً النقيب لوريس ميليكوف، وهو ضابط قدير وممتاز وذكي جداً، يتكلّم التترية ويعرف جيداً الحاج مراد الذي يبدو أنه، هو أيضاً، يثق به. الأيام العشرة التي أمضاها الحاج مراد هنا عاش خلالها في البيت نفسه مع المقدّم الأمير تَرَخانوف، آمر مقاطعة «شوشين»، الذي كان متواجداً هنا لأمور تتعلق بالخدمة؛ إنه إنسان محترم حقاً وأثق به كل الثقة. وهو أيضاً نال ثقة الحاج مراد، ومن خلاله وحده، ذلك أنه يجيد اللغة التترية بصورة ممتازة، تباحثنا في أشدّ الأمور حساسيةً وسرية.

لقد استشرت ترخانوف في شأن الحاج مراد، وقد وافقني تماماً في أنّ علينا إما التصرف مع الحاج مراد كما فعلت، وإما وضعه في سجن شديد الحراسة لأن حراسته لن تكون سهلة فيما لو عاملناه معاملةً سيئة، أو نفيه نهائياً إلى خارج البلاد. غير أنّ هذين الإجراءين الأخيرين لن يحرمانا الفائدة المتوخاة من خصومة الحاج مراد وشامل وحسب، بل وسيكبحان تنامي أي تذمّر محتمل من قِبل الجبليين وأي إمكانية لتمردّهم على سلطة شامل. وقد قال لي الأمير ترخانوف إنه شخصياً على يقين بصدق الحاج مراد، وأن الحاج مراد لا يشكّ أبداً في أن شامل لن يغفر له وأنه سيأمر بإعدامه، رغم وعده بالعفو عنه. الأمر الوحيد الذي كان يقلق ترخانوف، أثناء تواصله مع

الحاج مراد، هو تعلّقه الشديد بدينه، ولم يكن يخفي أنّ شامل قد يؤثر فيه من هذه الناحية، ولكنه - كما ذكرت سابقاً - لن يستطيع أبداً إقناع الحاج مراد بأنه لن يعدمه الحياة، الآن أو بعد مرور بعض الوقت على عودته.

هذا هو، أيها الأمير العزيز، كل ما أردت إخبارك به فيما يتعلق بهذه الحادثة من حوادث شؤوننا المحلية».

- 15 -

أُرسل هذا التقرير إلى تفليس في 24 كانون الأول من عام 1851. وفي عشية السنة الجديدة، وبعد أن أنهك ساعي البريد الحربي عشرات الخيول ونقل عشرات صناديق البريد،أوصل التقرير إلى الأمير تشرنيشيف، وزير الحربية آنذاك. وفي الأول من كانون الثاني حمل تشرنيشيف تقرير فورونتسوف هذا، بين أوراق أخرى، إلى الإمبراطور نيكولاي.

كان تشرنيشيف لا يحب فورونتسوف بسبب الاحترام العام الذي يتمتع به، ولثرائه العريض، ولأنه كان نبيلاً حقيقياً، بينما تشرنيشيف كان، رغم كل شيء، parvenu[1]، والأهم بسبب المَيْل الخاص الذي كان الإمبراطور يبديه تجاه فورونتسوف. لذا كان تشرنيشيف يستغلّ أي فرصة للإضرار بفورونتسوف قدر ما يستطيع. وفي تقريره السابق حول شؤون القوقاز نجح تشرنيشيف في إثارة سخط الإمبراطور نيكولاي على فورونتسوف، ذلك أن الجبليين أبادوا فصيلة قوقازية صغيرة بأكملها تقريباً بسبب إهمال القيادة، وكان ينوي الآن عرض توصية فورونتسوف بما يخصّ الحاج مراد من الناحية غير المجدية.

(1) Parvenu (بالفرنسية): حديث نعمة، متسلّق، وصولي.

أراد أن يوحي إلى الإمبراطور أن فورونتسوف يتصرف دائماً بعدم تبصّر، لا سيما في ما يضرّ بالروس، عبر إبداء حمايته للسكان المحليين بل حتى تساهله، بإبقائه الحاج مراد في القوقاز؛ وأن الحاج مراد لم ينضمّ إلينا، على الأرجح، إلا لاستطلاع دفاعاتنا، ولهذا يستحسن إرساله إلى وسط روسيا وعدم استخدامه إلا بعد إنقاذ عائلته من الجبال بحيث يمكننا الوثوق في إخلاصه لنا.

لكن لم يتسنَّ لتشرنيشيف إنفاذ خطته، وذلك فقط لأن نيكولاي، صبيحة الأول من كانون الثاني، كان منحرف المزاج بصورة خاصة ولم يكن ليقبل أيَّ اقتراح من أيٍّ كان لمجرّد الاعتراض؛ ناهيكم عن أنه لم ميّالاً لقبول اقتراح تشرنيشيف الذي كان يتحمّله فقط لأنه كان يعتبره شخصاً لا غنى عنه موقتاً، فهو يعتبره وغداً كبيراً، وذلك بعد أن علم بحرصه على إهلاك زاخار تشرنيشيف[1] أثناء محاكمة «الديسمبريين» وبمحاولته الاستيلاء على ثروته. وبالتالي، بفضل حالة نيكولاي النفسية السيئة ظلّ الحاج مراد في القوفاز ولم يتغيّر مصيره، فقد كان يمكن لمصيره أن يتغيّر لو أن تشرنيشيف رفع تقريره في وقت آخر.

كانت الساعة التاسعة والنصف عندما وصل، في ضباب صقيعٍ بلغ 20 درجة مئوية تحت الصفر، حوذي تشرنيشيف، البدين

(1) زاخار تشرنيشيف هو غير تشرنيشيف وزير الحربية المذكور. الكونت زاخار تشيرنشيف (1797–1862) كان ديسمبرياً وعضواً في المجتمع السري في الشمال. ورغم أنه لم يشارك مباشرةً في حادثة 14 كانون الأول (ديسمبر، ومن هنا جاء اسم الديسمبريين الذين حاولوا قلب نظام الحكم في روسيا، أو هذا ما اتّهموا به) 1825، إلا أنه حُكم عليه بأربع سنوات سجن ثم النفي إلى الريف. وثمة دلائل تشير إلى أن هذا الحكم القاسي كان بوشاية من أ. إي. تشرنيشيف الذي كان أقرب معاوني القيصر نيكولاي الأول فيما يتعلق بقضية الديسمبريين. وقد حاول آ. إي. تشرنيشيف، سَميّ المحكوم زاخار تشرنيشيف، الاستيلاء على ممتلكات الأخير مستغلاً تشابه كنيتيهما. وهو ما يشير إليه تولستوي. (محرر الأصل الروسي والمترجم)

الملتحي، المعتمر طاقية سماوية حادة الأطراف من المخمل، في زحافةٍ ذات مزالج صغيرة، كالتي يركبها نيكولاي بافلوفيتش[1]، إلى مدخل القصر الشتوي، وأومأ برأسه لزميله، حوذي الأمير دولغوروكي الذي، بعد أن أوصل سيده، كان يقف في مدخل القصر منذ وقتٍ طويل، واضعاً الأعنّة تحت مؤخرته القطنية الكبيرة وهو يفرك يديه الخدرتين.

كان تشرنيشيف يرتدي معطفاً بياقة من فراء القندس الرمادي المنفوش وقبعة رسمية مثلثة الزوايا بأعراف كعرف الديك. ألقى عنه الملحفة المصنوعة من جلد الدب وترجّل بحذر من الزحافة بقدميه الخدرتين اللتين من دون خفّين (كان يفتخر بأنه لم ينتعل خفّين يوماً)، ثم تشجّع وسار على السجاد، مصلصلاً بمهمازيه، نحو الباب الذي فتحه له البواب في احترام. وبعد أن ألقى معطفه على يدي الخادم الذي هرع نحوه في الردهة دنا من المرآة وخلع قبعته مع باروكته المجعدة بعناية، ونظر إلى نفسه في المرآة وملّس بيديه الهرمتين فوديه وذؤابته بحركة معتادة، وسوّى الصليب في رقبته وهندم شرائطه وكتّافيتيه العريضتين، وأخذ يخطو في وهن بقدميه الهرمتين اللتين لا تطيعانه جيداً، وراح يصعد الدرج الخفيف الانحدار على السجاد. مرّ تشرنيشيف أمام الخدم الواقفين في بزات التشريف الرسمية عند الباب والمنحنين له في خنوع وتملّق،

(1) الإمبراطور نيكولاي (نيقولا) الأول (1796–1855): ابن الإمبراطور بولس الأول والإمبراطورة آنّا بيتروفنا ابنة بطرس الأكبر. تولّى الحكم عام 1825، وكان أول ما قام إعدام المشاركين في انتافضة ديسمبر (نوفمبر وفق التقويم الغريغوري). حكم بقبضة من حديد، وسعى إلى تفكيك الإمبراطورية العثمانية الأمر الذي كان سبباً بنشوب حرب القرم سنة 1853 التي هزم فيها العثمانيون الروس بدعم من تحالف الدول الأوروبية، مما دفعه إلى الانتحار بالسمّ. وخلفه ابنه ألكسندر الثاني. (م)

ودخل غرفة الاستقبال. الياور المناوب، المعيّن حديثاً، المتألق ببزته الرسمية الجديدة وكتافياته وشرائطه، وبوجهه المتورّد الذي لا يزال نضراً وشاربيه وفوديه السود الممشطَيْن باتجاه عينيه، كما يفعل نيكولاي بافلوفيتش، استقبله في احترام. نهض لاستقبال تشرنيشيف محيياً إياه الأمير فاسيلي دولغوروكي، صديق وزير الحربية، وقد ارتسم الضجر على وجهه الغبي المزيّن بفودين وشاربين وسوالف كالتي يضعها الإمبراطور نيكولاي بافلوفيتش.

سأل جرنيشيف مخاطباً الياور ومشيراً إلى باب المكتب:

— L'empereur?[1]

— Sa Majesté vient de rentrer.[2]

أجاب الياور، وبدا واضحاً أنه مغتبط بسماع جَرْس صوته، وتوجّه نحو الباب المغلق بخطوات خفيفة؛ كمن يسبح؛ بحيث أنه لو وُضعت على رأسه كأس ملأى بالماء لما أراق منها شيئاً، واختفى خلف الباب مُظهراً بكل كيانه الإجلال للمكان الذي دخله.

في هذه الأثناء فتح دولغوروكي حقيبته معايناً الأوراق التي تحويها. أما تشرنيشيف فكان يتمشى في الغرفة، متجهماً، ممرّناً ساقيه، ومتذكّراً كل ما عليه إبلاغه للإمبراطور، وكان واقفاً قرب باب المكتب عندما انفتح الباب ثانيةً وخرج منه الياور، الذي ازداد تألقاً وإجلالاً، ودعا، مؤدّياً التحية الرسمية، الوزير ورفيقه إلى الدخول على الإمبراطور.

---

(1) - الإمبراطور؟ (بالفرنسية)

(2) - لقد عاد جلالته للتو. (بالفرنسية)

كان القصر الشتوي قد أُعيد بناؤه وترميمه منذ زمنٍ طويل بعد الحريق، ولكن الإمبراطور كان لا يزال يقيم في الطبقة العلوية منه. المكتب الذي كان يستقبل فيه الوزراء وكبار القادة كان عبارة عن غرفة عالية السقف جداً لها أربع نوافذ كبيرة، وكانت صورة كبيرة للإمبراطور ألكسندر الأول معلقة على الجدار الرئيسي للمكتب، وكانت هناك طاولتا مكتب بين النوافذ، وقرب الجدران كانت تنتصب بضع طاولات، وفي وسط الغرفة طاولة مكتب ضخمة، أمامها مقعد نيكولاي، وحولها كراسٍ للذين يستقبلهم.

كان نيكولاي جالساً إلى الطاولة في سترة رسمية سوداء ذات أشرطة ومن دون كتافيات، ملقياً إلى الخلف جسده الضخم، المشدود بقوة بسبب كرشه الكبير، وهو يتفرّس في الداخلين بلا حراك بنظرةٍ لا حياة فيها. وجهه الأبيض المستطيل بجبهته الكبيرة المتراجعة، الناتئة بفضل فوديه الممشّطين الموصولين بشعره المستعار بمهارة بحيث يخفيان صلعته، كان اليوم بارداً ولا حياة فيه بشكل خاص. أما عيناه، الكدرتان دائماً، فكانتا أشدّ كدراً من المعتاد، وشفتاه المزمومتان تحت شاربيه المعقوفين إلى أعلى، وخداه المكتنزان الحليقان حديثاً والمسنودان إلى ياقةٍ عالية، مع عارضيه العريضين اللذين تُركا من دون حلاقة، وذقنه المضغوطة على ياقته، هذا كله أكسب وجهه سيماء التبرّم، بل حتى الغضب. وكان سبب مزاجه هذا هو التعب. أما سبب تعبه فهو أنه كان في الليلة السابقة في حفلة تنكرية، وبينما هو يطوف، كعادته، مقنّعاً بقناع الفرسان مع طائر على رأسه، بين الحضور المتزاحم حوله والمتجنّب قامته الضخمة والواثقة في وجل، التقى مرةً أخرى ذاك القناع الذي أثار فيه، في الحفلة التنكرية

السابقة، ببياضه الناصع وقامته الرائعة وشعره الجميل، شهوته الهرمة، **ثم احتجبت المقنَّعة عنه واعدةً إياه باللقاء في الحفلة التنكرية التالية.** وفي الحفلة أمس توجّهت نحوه فلم يُخلِ سبيلها هذه المرة، وقادها إلى تلك المقصورة الخاصة المجهّزة دائماً لهذه الغاية، حيث يمكنه الانفراد بعشيقاته. **وأثناء توجههما إلى المقصورة في صمت تلفّت** نيكولاي حوله باحثاً عن الساعي، لكنه لم يقع عليه، فعبس ودفع باب المقصورة بنفسه مفسحاً للسيدة كي تدخل قبله.

قالت صاحبة القناع متوقفّةً أمام باب المقصورة:

— Il y a quelqu'un.[1]

كانت المقصورة مشغولة فعلاً. فقد كان يجلس على الأريكة المخملية، متقاربَين، ضابط «أُولاني»[2] وامرأة شابة مليحة ذات شعر أشقر أجعد في ثوب «دومينو» وقد خلعت قناعها. وحين رأت المرأة الشقراء قامة نيكولاي الغاضبة والمشدودة إلى آخرها سارعت إلى الاحتجاب بالقناع. أما الضابط «الأُولاني» فقد أخذ ينظر إلى نيكولاي بعينين مسمّرتين ممتقعاً من الهلع، من دون أن ينهض عن الأريكة.

رغم اعتياد نيكولاي على الهلع الذي يبعثه في الناس، والذي كان يطيب له دوماً، إلا أنه أحياناً كان يحب إذهال أولئك الذين تملّكهم الرعب بمخاطبتهم، على العكس، بكلمات لطيفة. وهكذا تصرّف الآن أيضاً، فقد قال للضابط المذهول من الهلع:

(1) - يوجد أحد هنا. (بالفرنسية)
(2) الأُولان، هم الخيّالة حاملو المزاريق في الجيش القيصري الروسي.

- حسنٌ يا أخ، إنك أكثر شباباً مني ويمكنك أن تعطيني مكانك.

هبّ الضابط واقفاً وخرج صامتاً، ممتقعاً ومحمرّاً ومطأطئاً، في إثر المرأة المقنّعة من المقصورة، وظلّ نيكولاي بمفرده مع سيدته.

تبيّن أن المقنّعة فتاة بريئة مليحة في العشرين من عمرها، ابنة مربية سويدية. وقد أخبرت هذه الفتاة نيكولاي أنها أغرمت به وعبدته منذ صغرها، من خلال صوره، وقررت لفت انتباهه بأي ثمن، وأنها وقد بلغت مرادها لم تعد بحاجة إلى أي شيء آخر، حسب قولها. أخذ نيكولاي هذه الفتاة العذراء إلى حيث يلتقي النساء عادةً وقضى معها أكثر من ساعة.

ولمّا عاد تلك الليلة إلى غرفته واستلقى على سريره الضيق القاسي، الذي كان يفخر به، وتغطّى ببردته التي كان يعتبرها (ويقول إنها) بشهرة قبعة نابليون، ظلّ وقتاً طويلاً عاجزاً عن النوم. فتارةً كان يتذكر تعبير الفزع والإعجاب على وجه تلك الفتاة الأبيض، وتارةً أخرى كان يتذكّر كتفي عشيقته الدائمة نيليدوفا القويين المكتنزين، وكان يقارن بين هذه وتلك. أما كون فجور الرجل المتزوج شيء مرذول فهذا لم يخطر بباله قط، ولكان دُهش بشدة لو أنّ أحدهم استنكر عليه ذلك. ولكن بغضّ النظر عن يقينه بأنه تصرّف كما ينبغي، ظلّت في نفسه جُشأة غير مستساغة، ولكي يخمد هذا الشعور راح يفكّر في ما يبعث السكينة في نفسه دائماً، ألا وهو مدى عظمته. ورغم أنه نام في وقت متأخر إلا أنه استيقظ الساعة الثامنة كالعادة، وبعد حمامه الصباحي المعتاد، بمسح جسده الضخم حسن التغذية بالثلج، وأداء الصلاة، حيث تلا الصلوات التي ألف تلاوتها منذ

طفولته، «السيدة العذراء» و«الإيمان الرسولي» و«أبانا»، من دون أن تعني الكلمات التي تلفّظ بها أي شيء، خرج من الممر الصغير إلى رصيف النهر في معطفه وقبعته.

في منتصف رصيف النهر صادف طالباً من طلاب معهد الحقوق، فارع القامة مثله، في زيّه الرسمي وعلى رأسه قبعة، فتجهّم عند رؤية زيّ المعهد الذي كان لا يحبه لتحرّره، لكن قامة الطالب الفارعة، وحركته الممشوقة الجادة وهو يؤدي التحية شادّاً مرفقه، خففت من انزعاجه.

- ما كنيتك؟ سأله الإمبراطور.

- بولوستاف جلالة الإمبراطور.

- أحسنت!

ظل الطالب واقفاً ويده مرفوعة إلى قبعته. توقف نيكولاي.

- أتريد الانضمام إلى الخدمة العسكرية؟

- إطلاقاً يا صاحب الجلالة.

«أبله!» واستدار نيكولاي وواصل سيره وراح يتلفّظ بصوتٍ عالٍ بأولى الكلمات التي تخطر في ذهنه. «كوبرفين، كوبرفين، - كرّر اسم فتاة أمس عدة مرات - شنيع، شنيع». لم يكن يفكّر في ما يقول، لكنه كان يهدّئ نفسه بالتركيز على ما يقول. قال لنفسه شاعراً مرةً أخرى باقتراب شعور الامتعاض ذاك: «ماذا كانت لتصبح روسيا من دوني. أجل، ماذا كانت ستصبح لولاي؟ ليس روسيا وحدها بل أوروبا برمّتها»، وتذكّر صهره، ملك بروسيا، وضعفه وغباءه، فهزّ رأسه.

أثناء عودته إلى الرواق رأى عربة يلينا بافلوفنا التي كانت تدنو من مدخل القصر، المدعو قصر سالطيكوف، مع خادمٍ أحمر الزيّ. كانت يلينا بافلوفنا بالنسبة إليه مثالاً لأولئك الناس التافهين الذين لم يكونوا يجادلون في العلوم والشعر فقط، بل وفي كيفية حكم الناس، متصوّرين أن في وسعهم أن يحكموا أنفسهم بصورة أفضل من حكمه، هو نيكولاي، لهم. كان يدرك أنه مهما سحق هؤلاء الناس فسوف يعاودون الظهور ثانيةً المرة تلو الأخرى. تذكّر أخاه المتوفى منذ عهدٍ قريب ميخائيل بافلوفيتش، وتملّكه الحزن والأسف، فتجهّم عابساً وراح ثانيةً يهمس بأولى الكلمات التي تخطر له، ولم يتوقّف عن الهمس إلا عند دخوله القصر. وعند دخوله جناحه ملَّسَ أمام المرآة فوديه والشعر على صدغيه وسوّى الشعر المستعار على رأسه ثم مضى مباشرةً إلى المكتب، وهو يفتل شاربيه، حيث يتلقى التقارير.

كان تشرنيشيف أول من استقبله. أدرك تشرنيشيف فوراً من وجه نيكولاي، لا سيما من عينيه، أنه متعكّر المزاج بصورة خاصة، ولمعرفته بمغامرته أمس فهم سبب ذلك. بعد أن حيّا تشرنيشيف في فتور، داعياً إياه إلى الجلوس، أخذ نيكولاي يحدّق فيه بعينيه الميتتين.

كان أول ما عرضه تشرنيشيف في تقريره مسألة تتعلق بكشف اختلاسات موظفين من ميّاري[1] الجيش، ثم عرض مسألة إعادة انتشار القوات على الحدود البروسية، ثم أسماء بعض الأشخاص

---

(1) الميّار هو الموظف المسؤول عن تموين الجيش..

الذين سقطت أسماؤهم سهواً من القائمة الأولى، لمكافأتهم في عيد رأس السنة الجديدة. تلا ذلك تقرير فورونتسوف حول الحاج مراد؛ وأخيراً مسألة مزعجة عن طالب في أكاديمية الطب حاول اغتيال أحد الأساتذة.

كان نيكولاي يمسّد الأوراق، زامّاً شفتيه في صمت، بيديه الكبيرتين البيضاوين اللتين في بنصر إحداهما خاتم من الذهب، ويستمع إلى التقرير المتعلق بالاختلاسات من دون أن يحوّل نظره عن جبهة تشرنيشيف وناصيته.

كان نيكولاي واثقاً بأن الجميع يسرقون، وكان يعلم أنْ لا بدّ من معاقبة الميّارين الآن، وقرر إرسالهم جميعاً إلى الجندية، لكنه كان يعلم أيضاً أن هذا لن يمنع الذين يحلّون محلّ المطرودين من أن يحذوا حذوهم، فالسرقة من صفات الموظفين، ومن واجبه معاقبتهم، ورغم أنه سئم ذلك إلا أنه كان ينفّذ هذا الوجب بكل طيبة خاطر.

قال:

- يبدو أن هناك رجلاً شريفاً واحداً عندنا في روسيا.

فهم تشرنيشيف على الفور أنّ هذا الشريف الوحيد في روسيا كان نيكولاي نفسه، فابتسم موافقاً وقال:

- يبدو الأمر كذلك يا صاحب الجلالة.

فقال نيكولاي: «دعها، سأتخذ قراراً في هذا الشأن» ووضع الورقة على جانب الطاولة الأيسر.

بعد ذلك عرض تشرنيشيف موضوع المكافآت وإعادة نشر القوات. استعرض نيكولاي القائمة فشطب بعض الأسماء، ثم

أمر بإيجاز وبشكل حاسم بتحريك فرقتين من الجيش إلى الحدود البروسية.

لم يستطع نيكولاي قط أن يغفر للملك البروسي الدستور الذي منحه للشعب بعد أحداث عام 1848، ولهذا، معرباً لصهره عن مودته الشديدة في الرسائل والكلمات، اعتبر أن من الضروري نشر قوات على الحدود البروسية من باب الاحتياط. وقد تلزم هذه القوات في حال تمرّد الشعب في بروسيا (كان نيكولاي يرى القابلية للتمرد في كل مكان)، لتسييرها للدفاع عن عرش صهره، مثلما حدث عندما سيّر القوات دفاعاً عن النمسا، ضد المجريين. وجود هذه القوات على الحدود أمر ضروري، وكذلك لإعطاء المزيد من الوزن والقيمة للنصائح التي يقدّمها إلى الملك البروسي.

وقال في سرّه ثانيةً: «أجل، ما كان مصير روسيا الآن لولاي»، ثم سأل:

- ماذا أيضاً؟

قال تشرنيشيف: «بريد من القوقاز» وأخذ يعرض ما كتبه فورونتسوف عن استسلام الحاج مراد.

قال نيكولاي: «هكذا إذن، بداية حسنة»، فقال جرنيشيف: «جليٌّ أن الخطة التي وضعتموها جلالتكم بدأت تظهر نتائجها».

هذا المديح لمواهبه الاستراتيجية كان يطيب لنيكولاي بصفة خاصة، ذلك أنه على الرغم من اعتزازه بمواهبه الاستراتيجية إلا أنه كان يدرك في أعماقه أنه يفتقر إليها وهو الآن يريد سماع المزيد من الإطراء، فسأل تشرنيشيف:

– وما قولك؟

– أرى أنه لو اتّبعنا خطتك منذ وقتٍ طويل، بالتحرك قدماً، ولو ببطء، عبر قطع الغابات وإتلاف المؤن الغذائية، لكنّا أخضعنا القوقاز منذ زمنٍ بعيد. وإني أعزو استسلام الحاج مراد إلى هذا السبب. لقد أدرك أنه لا يستطيع الاستمرار في مقاومتنا.

قال نيكولاي: صحيح.

رغم أن خطة التقدّم ببطء في أرض العدو عبر قطع الغابات وإتلاف المؤن الغذائية كانت خطة يرمولوف[1] وفلياMينوف، وكانت مناقضة كلياً لخطة نيكولاي التي كان يجب بموجبها الاستيلاء على مقرّ شامل وتدمير وكر قطّاع الطرق هذا، والتي شُنّت بموجبها سنة 1845 حملة دارغينسك التي كلّفت عدداً كبيراً من الأرواح؛ رغم ذلك كان نيكولاي ينسب خطة التقدم البطيء عبر قطع الغابات وإتلاف المؤن الغذائية لنفسه. وبدا أنه، لكي يصدّق أن تلك الخطة خطته، كان لا بدّ من إخفاء حقيقة أنه هو الذات من أصرّ على الإجراء العسكري المناقض لها كلياً الذي أُجري سنة 1845. لكنه لم يكن يخفي ذلك وكان يفاخر بخطة سنة 1845 وخطة التقدم البطيء كليهما، رغم أن كلتا الخطتين تناقض إحداهما الأخرى بكل وضوح. فقد أوصله تملّق المحيطين به، الدائم والجليّ والمثير للاشمئزاز، إلى أنه لم يعد يرى تناقضاته، ولم يعد يقيس أعماله وأقواله بالواقع أو المنطق أو حتى بالفطرة السليمة البسيطة، وكان واثقاً تماماً بأن أوامره كلها، مهما كانت

(1) ألكسي بتروفيتش يرمولوف (1777–1861): جنرال من 1817 إلى 1827، والقائد العام للقوات الروسية في جورجيا، و«قنصل القوقاز». (محرر النص الروسي).

جوفاء وجائرة ومتناقضة في ما بينها، تصبح عقلانية وعادلة ومتّسقة، لا لشيء إلا لأنه هو من أصدرها.

هكذا أيضاً كان قراره بخصوص طالب الأكاديمية الطبية - الجراحية الذي أخذ تشرنيشيف يعرض قضيته بعد مسألة القوقاز.

كان فحوى المسألة أن الشاب رسب في الامتحان مرتين، فلما تقدّم للامتحان للمرة الثالثة ولم يُنجحه الممتحن مرة أخرى ثارت أعصاب الطالب، الذي اعتبر ذلك ظلماً، فاختطف مدية صغيرة من فوق الطاولة وانقضّ على البروفيسور في نوبة من الاضطراب الشديد وأصابه بجروح طفيفة.

سأل نيكولاي: ما كنيته؟

- بژيزوفسكي.

- بولوني؟

أجاب جرنيشيف:

- بولوني الأصل وكاثوليكي.

تجهّم نيكولاي.

لقد أساء نيكولاي إلى البولونيين كثيراً، ولكي يسوّغ هذه الإساءة كان عليه أن يكون علي يقين بأن البولونيين جميعاً أوغاد، وكان يعتبرهم كذلك ويكرههم بقدر الشرّ الذي أنزله بهم.

قال: «تمهّل قليلاً»، وطأطأ برأسه مغمضاً عينيه.

كان تشرنيشيف يعلم، وقد سمع ذلك أكثر من مرة من نيكولاي، أنه عندما يلزمه حل مسألة هامة ما فليس عليه إلا أن يركّز بضع

لحظات، وحينئذٍ ينزل عليه الوحي فيتمثّل له الحلّ الأمثل من تلقاء ذاته، كأنما ثمة صوت داخلي يقول له ماذا عليه أن يفعل. وكان يفكّر الآن في كيفية إشباع ذلك الحقد على البولونيين، الذي حرّضته في نفسه قصة هذا الطالب، وقد أوحى إليه الهاتف الداخلي بما يلي: أخذ التقرير وكتب على هامشه بخطّه الغليظ: «إنه يستحق الإعدام، ولكن ليست عندنا عقوبة إعدام والحمد لله، ولن يكون أنا من يسنّها. لذا آمر بتمريره 12 مرة بين ألف شخص، نيكولاي»[1]، ثم وقّعه بتوقيعه الضخم ضخامة غير طبيعية.

كان نيكولاي يعلم أن اثني عشرة ألف ضربة لا تعني موتاً محققاً فحسب بل ومؤلماً، وأنها قسوة مفرطة، إذ تكفي خمسة آلاف ضربة لقتل أقوى الرجال، لكن كان يطيب له أن يكون قاسياً بلا رحمة وكان يسرّه أن يظنّ أنّ عقوبة الإعدام لا وجود لها في روسيا.

بعد أن كتب قراره في شأن الطالب دفعه عبر الطاولة إلى تشرنيشيف وقال:

- هاك، اقرأه.

قرأه تشرنيشيف ثم حنى رأسه تعبيراً عن دهشته المُجِلّة للقرار الحكيم.

أضاف نيكولاي:

- وأحضروا جميع الطلبة إلى ساحة الاستعراض كي يشهدوا العقوبة.

(1) بمعنى تمرير الطالب وسط صفين من الجنود، كل صف مؤلف من 500 جندي، في يد كلٍّ منهم قضيب من الحديد يضربه به. أي 12 ألف ضربة. وكانت هذه عقوبة سائدة في روسيا القيصرية، لكن عدد الضربات هنا مبالغ فيه، وهو ما يشير إليه تولستوي.

وقال في سرّه: «سيفيدهم هذا. سوف أجتث هذه الروح الثورية، سأقتلعها من جذورها».

«حاضر»، قال جرنيشيف، وبعد قليلٍ من الصمت سوّى خلاله ذؤابته عاد إلى التقرير المتعلق بالقوقاز.

– وماذا تأمرني أن أكتب إلى ميخائيل سيميونوفيتش؟

أجاب نيكولاي:

– الالتزام بقوة بخطتي في تدمير المساكن وإتلاف المؤن الغذائية في الشيشان وإقلاقهم بالغارات.

فسأل تشرنيشيف:

– وماذا بخصوص الحاج مراد؟

– لكن فورونتسوف يقول إنه يريد استخدامه في القوقاز.

فقال تشرنيشيف متفادياً نظرة نيكولاي:

– أليست مخاطرة؟ أخشى أن ميخائيل سيميونوفيتش يثق به أكثر من اللازم.

سأله نيكولاي بحدّة ليستكشف غرضه من التشكيك في قرار فورونتسوف:

– وأنت ما رأيك؟

– أرى أن الآمَن إرساله إلى روسيا.

فقال نيكولاي ساخراً:

– أنت ترى ذلك. أما أنا فلا أرى ذلك وأوافق فورونتسوف. اكتب إليه بذلك.

- حاضر، قال جرنيشيف ثم نهض واقفاً وأخذ ينحني.

وانحنى أيضاً دولغوروكي الذي لم يفه طوال وقت التقرير إلا ببضع كلمات رداً على سؤال نيكولاي حول إعادة نشر القوات.

بعد تشرنيشيف استقبل نيكولاي الجنرال بيبكوف محافظ الإقليم الغربي. استحسن نيكولاي الإجراءات التي اتخذها بيبكوف ضد الفلاحين المتمردين الرافضين الانتقال إلى الأرثوذكسية وأمره بمحاكمة جميع العصاة أمام المحكمة العسكرية، وكان هذا معناه الحكم عليهم بـالقنانة. فضلاً عن أنه أمر أيضاً بإرسال رئيس إحدى الجرائد إلى الجندية لأنه نشر أدلة عن تعداد بضعة آلاف من نفوس الفلاحين الحكوميين الذين يعانون الرقّ في المزارع الإمبراطورية[1]. قال:

- إنني أفعل ذلك لأني اعتبره ضرورياً، ولا أسمح بمجادلتي في هذا الأمر.

أدرك بيبكوف مدى قسوة الأوامر المتعلقة بـالأُونيات[2] ومدى جور نقل الفلاحين الحكوميين، أي الفلاحين الوحيدين الأحرار في ذلك الوقت، وتحويلهم إلى أقنان للعائلة المالكة. لكن الاعتراض كان مستحيلاً. إذ إن مخالفة أمر نيكولاي كان يعني الحرمان من ذلك

(1) الفلاحون الحكوميون، أو العمال الزارعيون الذين كانوا يعملون في مزارع الدولة، كانوا أقرب إلى العاملين بالسخرة لقلة أجورهم وسوء أوضاعهم. وقد كتب تولستوي كثيراً عن أوضاعهم البائسة وعن الاستغلال الشنيع الذي يتعرّضون له، فضلاً عن المظالم والانتهاكات وعمليات التعذيب، لاسيما في كتابه «ملكوت الله في داخلكم»، الذي مُنع في روسيا، وفي مقالاته التي كثيراً ما كان يُمنع نشرها. (م)

(2) الأونيات: معتنقو الأونياتية، أي الكاثوليكية اليونانية التي تعود في تقاليدها الدينية إلى الكاثوليكية البيزنطية المشرقية التي نشأت في القرن الخامس الميلادي في صقلية بجنوب إيطاليا. كان الأونيات يتعرضون للقمع الشديد في روسيا من السلطات الدينية والسياسية على حدٍّ سواء وكثيراً ما كانوا يجبرون على التنكر لعقيدتهم واعتناق الأرثوذكسية.

المنصب الرائع الذي ناله بعد أربعين سنة والذي يستغله الآن، لذا فقد حنى بإذعان رأسه الأسود الذي وخطه الشيب دلالةً على الطاعة وعلى استعداده لتنفيذ المشيئة العليا القاسية والمجنونة وعديمة الرحمة.

بعد أن صرف نيكولاي بيبكوف تمطّى شاعراً أنه قد قام بواجبه على أحسن وجه، ثم نظر إلى الساعة ومضى يرتدي ملابسه استعداداً للخروج. وبعد أن ارتدى زيّه الرسمي، مع الكتفيات والأوسمة والشرائط، خرج إلى قاعات الاستقبال حيث كان أكثر من مئة شخص، الرجال في أزيائهم الرسمية والنساء في أثواب أنيقة مقوَّرة عند الصدر، وقد وقف كلٌّ منهم في المكان المخصص له، ينتظرون خروجه بفارغ الصبر.

خرج نيكولاي إلى المنتظرين بنظرةٍ لا حياة فيها، نافخاً صدره، ناتئ البطن من فوق الحزام وتحته، وإذ شعر أن الأنظار كلها متّجهة إليه في خنوع وتملّق اتّخذ هيئة الظفر والهيبة أكثر، وكلما وقعت عيناه على وجوهٍ يعرفها، ويتذكر من يكون أصحابها، كان يتوقف ويكلّمهم بالروسية تارةً أو يقول بضع كلمات بالفرنسية تارةً أخرى، ويصغي إلى ما يقولون له وهو يرمقهم في تعالٍ بنظرة باردة لا حياة فيها.

بعد تلقّيه التهاني، توجّه إلى الكنيسة.

رحّب خدّام الله، وكذلك الناس الدنيويون، بنيكولاي وأخذوا يمتدحونه ويثنون عليه، وهو تقبّل هذه الترحيبات والمدائح كما ينبغي، رغم سأمه منها. هذا كله كان ينبغي أن

يتم على هذا النحو لأن رفاهية وسعادة العالم أجمع تتوقفان على شخصه، ورغم أن هذا يتعبه إلا أنه لم يكن يحرم العالم من أفضاله. وعندما قال الشمّاس، ذو تسريحة الشعر الرائعة، في ختام صلاة الظهر عبارة «سنوات كثيرة»[1]، وردّدها خلفه المنشدون بأصواتهم الرائعة، تلفّت نيكولاي فلمح نيليدوفا بكتفيها الباذخين واقفةً عند النافذة، وحكم لصالحها مقارنةً بفتاة الأمس.

بعد الصلاة ذهب إلى حيث الإمبراطورة وقضى في المحيط العائلي بضع دقائق، مداعباً أطفاله وزوجته، ثم مضى، عبر الإرميتاج[2]، إلى وزير البلاط فولكونسكي، وأمره أن يدفع من ماله الخاص [مال الإمبراطور] راتباً تقاعدياً سنوياً لوالدة فتاة الأمس، ومن هناك خرج في نزهته اليومية المعتادة.

كان الغداء ذلك اليوم في قاعة بومبيي؛ وفضلاً عن ابني نيكولاي وميخائيل الأصغرين، دُعي كذلك البارون ليفين والكونت رژيجفُوسكي ودولغوروكي والمبعوث البروسي وياور ملك بروسيا.

أثناء انتظار خروج الإمبراطور والإمبراطورة انعقد بين المبعوث البروسي والبارون ليفين حديث ممتع حول آخر الأنباء المزعجة القادمة من بولنده.

(1) بمعنى: أطال الله عمر جلالة الإمبراطور. (م)
(2) الإرميتاج: القصر الشتوي، في بطرسبورغ، حوّلته السلطة السوفييتية متحفاً، يُعدّ حالياً من أعظم المتاحف في العالم. وكان القصر الصيفي في قرية «بيترغوف» على بحر البلطيق غير بعيد عن بطرسبورغ، وهو الآن متحف ومتنزّه رائع الجمال يرتاده آلاف السياح سنوياً. (م)

قال ليفين:

— La Pologne et le Caucase, ce sont les deux cautères de la Russie. Il nous faut cent mille hommes à peu près dans chacun de ces deux pays.[1]

تصنّع المبعوث البروسي الدهشة من أن تكون الحال على هذا النحو، وقال:

— Vous dites la Pologne.[2]

— Oh, oui, c'était un coup de maître de Maeternich de nous en avoir laissé lambarras...[3]

عند هذه النقطة من الحديث دخلت الإمبراطورة برأسها المرتعش وابتسامتها الجامدة، وفي إثرها نيكولاي.

على المائدة تحدث نيكولاي عن استسلام الحاج مراد، وعن أن الحرب في القوقاز يجب أن تنتهي سريعاً بفضل إجراءاته المتعلقة بالتضييق على الجبليين عبر قطع أشجار الغابات ونظام التحصينات.

بعد أن تبادل المبعوث نظرةً سريعة مع الياور، الذي حدّثه صباح اليوم بالذات عن ضعف نيكولاي المؤسف لاعتقاده أنه مخطِّط استراتيجي عظيم، أثنى بقوة على هذه الخطة التي تثبت مرةً أخرى مؤهلات نيكولاي الاستراتيجية العظيمة.

---

(1) بولنده والقوقاز قرحتان جلديتان في جسد روسيا. يلزمنا مئة ألف رجل على الأقل في كلٍّ من هذين البلدين. (بالفرنسية)

(2) تقول بولنده! (بالفرنسية)

(3) اه نعم، لقد كانت حركة بارعة من ميترنيخ، لكي يسبب لنا المتاعب... (بالفرنسية)

بعد الغداء ذهب نيكولاي بالعربة إلى الباليه، حيث تسعى على الخشبة مئات النساء شبه العاريات بالسراويل الداخلية. وقد لفتت نظره إحداهن بشكل خاص، فاستدعى قائد جوقة الباليه وشكره وأمر بإهدائها خاتماً من الألماس.

في اليوم التالي، أثناء تقديم تشرنيشيف تقريره، أكّد نيكولاي مرةً أخرى على أوامره الموجّهة إلى فورونتسوف بأن يقوم الآن، بعد استسلام الحاج مراد، بإقلاق راحة الشيشان بقوة وتضييق الخناق عليها.

كتب تشرنيشيف إلى فورونتسوف بهذا المعنى، وأسرع ساعي بريد آخر إلى تفليس، حاثّاً الخيول بقوة ومسبباً كدمات في وجوه الحوذية بالصفعات.

- 16 -

امتثالاً لأمر نيكولاي بافلوفيتش هذا شُنّت على الفور، في كانون الثاني 1852، غارة على الشيشان.

كانت الفرقة المكّلفة بشنّ الغارة مؤلّفة من أربع كتائب مشاة وفصيلتي مئة[1] من القوزاق وثمانية مدافع. سار الرتل في الطريق، وعلى جانبيه سلسلتان متواصلتان، تنزلان منحدراً تارةً وتصعدان تلاً تارة أخرى، من جنودٍ ينتعلون جزمات عالية السيقان ويرتدون معاطف نصفية من الفراء وطاقيات عالية، متنكّبين بنادقهم ومحتزمين بالخراطيش. وكانت الفرقة تتحرك، كالعادة، في أرض معادية ملتزمةً الصمت قدر الإمكان، اللهم إلا حين تقرقع المدافع المتقلقة أثناء عبور السواقي، أو حين تنخر فرس المدفعية أو تحمحم غير مدركةٍ الأمر بالصمت، أو حين يصرخ القائد بصوتٍ محتدٍّ مكبوت في مرؤوسيه حين تتباعد السلسلة أو تنضغط أكثر من اللازم أو تبتعد عن الرتل. ولم يُخرق الصمت إلا مرة واحدة، وذلك عندما قفزت من دغل العلّيق الواقع بين الرتل والسلسلة معزاة بيضاء البطن والقفا

(1) فصيلة المئة: تنظيم عسكري مأخوذ عن الرومان، حيث يكون عديد الجنود في الفصيلة مئة على رأسهم ضابط برتبة «قائد مئة». (م)

وسوداء الظهر وتيس يشبهها على رأسه قرنان صغيران متراجعان إلى الوراء. فقد اندفع الحيوانان الجميلان الفزعان بوثبات كبيرة، مرتكزين إلى قوائمهما الأمامية، على مقربةٍ من الرتل فقام بعض الجنود بمطاردتهما، وهم يركضون ويصيحون ويضحكون، بنيّة طعنهما بالحراب، لكن البهيمتين استدارتا وقفزتا عبر سلسلة الجنود وانطلقتا، كالطير، نحو الجبال وفي إثرهما بعض الخيّالة وكلاب السرية.

كان الفصل لا يزال شتاءً، لكن الشمس بدأت ترتقي عالياً، وفي الظهيرة، بعد أن قطعت الفرقة التي انطلقت في الصباح الباكر عشرة فرستات، حميت الشمس وصار الجو حارّاً وبلغت أشعتها من السطوع حدّاً كان من المؤلم النظر إلى فولاذ الحراب أو إلى البروق التي أخذت تبرق فجأةً على نحاس المدافع كشموسٍ صغيرة.

في الخلف كان الجدول الصافي السريع الجريان الذي عبرته الفرقة للتو، وفي الأمام حقول محروثة ومروج ذات أخاديد قليلة العمق، وإلى الأمام أكثر كانت ثمة جبال سود غبشاء تكسوها الغابات، تليها جلاميد ناتئة، وفي الأفق العالي هامات الجبال الثلجية الرائعة أبداً والمتغيرة باستمرار كالألماس إذ تُلاعب الضياء.

كان بوتلِر، الضابط الوسيم الفارع الطول، القادم من الحرس الإمبراطوري منذ وقتٍ قريب، يسير في مقدمة السرية الخامسة، يلبس سترة سوداء ويضع على رأسه طاقية عالية، متنكّباً سيفاً. يعتمل في نفسه الشعور الجريء بفرحِ الحياة مصحوباً بالشعور بخطر الموت وبالرغبة بأن يكون جزءاً من كلٍّ هائل تقوده إرادة واحدة.

كانت هذه هي المرة الثانية التي يخرج فيها بوتلر إلى الحرب، وكان يطيب له التفكير في أنّ العدو سيبدأ الآن فوراً بإطلاق النار عليهم، وأنه ليس فقط لن يحني رأسه عندما تتطاير القذائف فوقه أو يلتفت إلى أزيز الرصاص، وإنما سيرفع رأسه عالياً، كما سبق له أن فعل، ويلتفت إلى الرفاق والجنود بعينين باسمتين ويأخذ في التحدث بصوتٍ بالغ الهدوء عن أي شيء لا علاقة له بما يجري.

انعطفت الفرقة عن الطريق المستوية إلى طريق قلّما يطرقها أحد، تعبر حقل ذرة محصود، وأخذت تقترب من الغابة عندما طارت قذيفة فجأةً - لم يتبيّنوا مصدرها - بصفيرٍ غاضب وانفجرت في الأرض وسط قافلة العربات، إلى جانب الطريق، في حقل الذرة.

قال بوتلر، مبتسماً بمرح، لرفيقه السائر إلى جواره:

- ها قد بدأت.

وبالفعل، في إثر القذيفة ظهر من الغابة الكثيفة حشدٌ من الفرسان الشيشان مع بيارقهم. كان ثمة بيرق أخضر عريض وسط جمهرة الفرسان، فقال عريف السرية المسنّ، البعيد النظر جداً، لبوتلر القصير النظر، إنّ هذا لا بدّ أن يكون شامل نفسه. انحدر الحشد عن التلّ ولاح في الأعلى، إلى يمين الفصيلة الأقرب، وشرع ينزل التلّ. توجه إلى سرية بوتلِر جنرال ضئيل الحجم، في سترة سوداء سميكة وطاقية ذات عُرف أبيض كبير، ممتطياً حصانه الرهوان، وأمره بالتوجه إلى اليمين لمواجهة الفرسان النازلين، فأدار بوتلر سريته بسرعة إلى تلك الجهة، ولكن قبل الشروع في النزول إلى الوادي الضيق سمع خلفه طلقتي مدفع الواحدة تلو الأخرى،

فالتفت فإذا بسحابتين من الدخان المغبرّ تعلوان مدفعين وتنتشران عبر الوادي. فوج الفرسان، الذي من الواضح أنه لم يتوقع وجود مدفعية، تراجع القهقرى. أخذت سرية بوتلر تطلق النار في إثرهم، وغطى دخان البارود الوادي برمّته. وفقط في أعلى الوادي كان يُرى كيف يتراجع الجبليون في عجالة وهم يردّون على نيران القوزاق الذين يتعقّبونهم. مضت الفرقة أبعد في إثر الجبليين، وعلى منحدر وهدة ثانية لاحت قرية جبلية.

دخل بوتلر مع سريته القرية جرياً، في إثر القوزاق. كانت القرية خالية من السكان. أُعطي الأمر للجنود بأن يحرقوا القمح والدريس والمساكن أيضاً، فانتشر عبر القرية كلها دخانٌ كثيف رائحته لاذعة، ووسط هذا الدخان كان الجنود يتحركون جيئةً وذهاباً وهم يحملون من المساكن ما يقعون عليه، وبشكل خاص كانوا يتلقّطون الدجاج، الذي لم يتمكّن الجبليون من أخذه معهم، أو يطلقون عليه النار. جلس الضباط بعيداً عن الدخان وأخذوا يتناولون الفطور أو يشربون. أحضر لهم أحد العرفاء عدداً من أقراص العسل على لوح من الخشب. لم يكن هناك ما يؤذن بوجود الشيشان، وبعد منتصف النهار بقليل أُعطي الأمر بالانسحاب.

اصطفّت السرايا في رتل خلف القرية، واتّفق لبوتلر أن يتواجد في المؤخرة، وما إن تحركت الفرقة حتى ظهر الشيشان وأخذوا يتعقبون الفرقة ويلاحقونها مطلقين النار، ولمّا خرجت الفرقة إلى أرض مكشوفة تراجع الجبليون. لم يُصب أحد في سرية بوتلر، وعاد وهو في حالة نفسية بمنتهى المرح والجسارة.

عندما انتشرت الفرقة في المروج وحقول الذرة، بعد أن خاضت في طريق عودتها في الجدول الذي عبرته صباحاً، تقدّم منشدو السرايا إلى المقدمة وصدحت الأناشيد. كانت الريح ساكنة والهواء عليلاً وصافياً وشفافاً بحيث إن الجبال التي تعلو الثلوج قممها، البعيدة مئات الفراسخ، بدت شديدة القرب. وعندما كان المنشدون يتوقفون عن الغناء كان يُسمع وقع الأقدام المتساوق وقرقعة المدافع كخلفية تبدأ بها الأناشيد وتنتهي. الأغنية التي كانت تُغنّى في سرية بوتلر الخامسة كانت من تأليف طالب ضابط على شرف الكتيبة وكانت ذات لحن غنائي راقص مع لازمة تقول: «لا مثيل لهم، لا مثيل لهم، المغاوير، المغاوير!».

كان بوتلر على صهوة حصانه إلى جوار رئيسه الأقرب، الرائد بتروف، الذي كان يقيم وإياه أيضاً، وكان يغبط نفسه باستمرار على قراره بمغادرة الحرس والذهاب إلى القوقاز. كان السبب الرئيس لانتقاله من الحرس هو أنه خسر في لعب الورق كل ما كان يملك، وكان يخشى ألاّ يستطيع الامتناع عن لعب الورق مادام في الحرس، في حين لم يعد يملك شيئاً يقامر به. هذا كله انتهى الآن. إنه يعيش حياةً مختلفة اليوم، وكم هي رائعة، مِلْؤها فتوّة، وقد نسي إفلاسه ونسي ديونه غير المدفوعة. القوقاز، والجنود، والضباط، والرائد السكير الطيب القلب المقدام بتروف - بدا له هذا كله من الروعة بحيث إنه لم يكن يصدق نفسه أحياناً؛ أنه ليس في بطرسبورغ، ليس في الغرف الخانقة جراء دخان السجائر يُثني زوايا الورق ويلعب ضد موزِّع الورق الذي لا يطيقه وشاعراً بألمٍ ساحق في رأسه، وإنما هو هنا، في هذه المنطقة النائية الساحرة، وسط القوزاق الشجعان.

كان منشدو سريته ينشدون: «لا مثيل لهم، لا مثيل لهم، المغاوير، المغاويرا» وكان جواده يخطو في مرح على وقع هذه الموسيقى، وكان «تريزوركا»، كلب السرية الرمادي الأشعث، يركض في المقدمة مهموم الهيئة، وهو يهز ذيله، كأنه قائد السرية. كانت نفس بوتلر عامرة بالجسارة والسكينة والمرح. كانت الحرب تتمثّل بالنسبة إليه في أن يعرّض نفسه للخطر ولاحتمال أن يُقتل، وبذلك يغدو جديراً بالأوسمة وباحترام رفاقه هنا وأصدقائه في روسيا. أما الوجه الآخر للحرب: مقتل وإصابة الجنود والضباط والجبليين، فلم يكن حتى يمرّ في خياله، مهما بدا ذلك غريباً. بل إنه، لا شعورياً، كان لا ينظر أبداً إلى القتلى والجرحى، لكي يحافظ على تصوّره الشعري عن الحرب. وهو ما فعله هذه المرة أيضاً. كان لدينا ثلاثة قتلى واثنا عشر جريحاً. مرّ بمحاذاة جثة ملقاة على ظهرها، وفقط بعين واحدة نظر إلى الوضعية الغريبة لليد التي بدت كالشمع وبقعة الدم الحمراء القاتمة على الرأس، ولم يتوقف ليعاينها. ولم يكن الجبليون بالنسبة إليه إلّا فرسان بواسل يجب قتالهم.

قال الرائد في الفاصل بين أغنيتين:

– هكذا هي الحال هنا يا صاحبي، لا كما عندكم في بطرسبورغ: يميناً تراصف، يساراً تراصف. وها نحن كَدَحْنا – ثم إلى البيت. ستقدّم لنا ماشوركا فطيرةً، وحساء الكرنب اللذيذ. هذه هي الحياة! أليس كذلك؟

ثم أمر المنشدين بغناء أغنيته المفضلة:

– هيا أسمعونا «لمّا بزغ الفجر».

كان الرائد يعيش مع ابنة أحد الممرضين كزوج وزوجة، وكان يدعوها «ماشكا» في بادئ الأمر، وبعد ذلك صار يدعوها ماريّا دميتريفنا. كانت ماريّا دميتريفنا امرأة في الثلاثين لا ولد لها، وكانت شقراء جميلة يغطّيها النمش كلها. وأياً كان ماضيها، فإنها الآن رفيقة الرائد الوفية، ترعاه كمربيّة، وكان الرائد، الذي كثيراً ما يثمل إلى حدّ فقدان الوعي، بحاجة إلى ذلك.

ولمّا بلغوا الحصن جرى كل شيء كما تراءى للرائد، فقد قدّمت ماريا دميتريفنا له ولبوتلر ولضابطين مدعوين آخرين من الفرقة غداءً دسماً شهياً، وقد أكل الرائد وشرب حتى بات عاجزاً عن الكلام، فمضى إلى غرفته لينام. وبوتلر المتعب، ولكن السعيد، والذي شرب من «الچيخير»[1] أكثر مما ينبغي بقليل، كذلك مضى إلى غرفته، ولم يكد يخلع ملابسه حتى وضع راحة يده تحت رأسه الأجعد الجميل وغطّ في نومٍ عميق من دون أحلام ومن دون أرق.

(1) الچيخير: نبيذ شيشاني أحمر غير مخمّر حلو المذاق، منزلي الصنع. (م)

- 17 -

القرية التي دمّرتها الغارة كانت القرية نفسها التي أمضى فيها الحاج مراد الليلة التي سبقت ذهابه إلى الروس.

سادو، الذي نزل الحاج مراد في ضيافته، غادر مع أسرته إلى الجبال عند اقتراب الروس من القرية. وعند عودته وجد بيته مدمّراً: كان السقف منهاراً، والباب وأعمدة السقيفة محترقة، والبيت تملأُه القذارة. أما ابنه - ذاك الصبي الجميل ذو العينين البرّاقتين الذي كان ينظر إلى الحاج مراد بإعجاب - فقد حُمل إلى المسجد ميتاً على ظهر حصان مغطّى ببُردة. كان قد طُعن في ظهره بحربة. كانت المرأة الرزينة، التي خدمت الحاج مراد أثناء زيارته لهم، تقف الآن فوق جثمان ابنها، في قميصٍ ممزّق عند الصدر، وقد انكشف ثدياها الهرمان الذاويان، حاسرة الرأس، وهي تنشب أظفارها في وجهها حتى أدمته. ومضى سادو، حاملاً معولاً ومجرفة، مع أقاربه ليحفر قبراً لابنه. وكان الجد العجوز جالساً عند جدار البيت الخرب يبري عوداً ناظراً قدّامه في بلادة، فقد عاد من منحلته للتو. كومتا الدريس اللتان كانتا هناك أُحرقتا، وأشجار المشمش والكرز التي غرسها الكهل وتعهّدها بالرعاية كُسّرت وأُحرقت، والأسوأ أن قفران النحل كذلك أُحرقت

مع النحل. كان عويل النساء يُسمع من البيوت كلها، وفي ساحة القرية حيث جُلبت جثتان. وكان الأطفال الصغار يبكون مع بكاء أمهاتهم. وكانت الأبقار الجائعة أيضاً، التي لم يكن هناك شيء لإطعامها، تخور. والأولاد الأكبر سنّاً لم يكونوا يلعبون وإنما كانوا يرمقون الكبار بعيونٍ مِلْؤها الفزع. كما تمّ تلويث نبع الماء، من الواضح أن ذلك تمّ عمداً، بحيث يتعذّر جلب الماء منه. والمسجد أيضاً تمّ تدنيسه وتلطيخه بالقذارة، وكان المُلّا وتلامذته[1] ينظّفون المسجد من النجاسة.

تجمّع شيوخ القرية في الساحة وراحوا يناقشون وضعهم، وهم جالسون القرفصاء. لم يأتِ أحد على ذكر كراهية الروس، فما كان يشعر به الشيشان جميعاً، كبيرهم وصغيرهم، كان أقوى من الكراهية. لم يكن الكره ما يشعرون به، بل استقرّ في داخلهم أنّ الكلاب الروس ليسوا بشراً، وكان شعورهم بالنفور والقرف وعدم الفهم تجاه قسوة تلك المخلوقات الجنونية من الشدّة بحيث كانت الرغبة في سحقهم، مثل الرغبة في سحق الجرذان والعناكب السامة والذئاب، شعوراً طبيعياً كغريزة حفظ الذات.

كان على سكان القرية أن يختاروا: إما البقاء في القرية وإعادة بناء كل ذاك العمران الذي يُبنى بكل تلك الجهود المروّعة ويُباد بهذه السهولة السخيفة، مع توقّع أن يتكرّر الأمر نفسه، أو الخضوع للروس، بما يتعارض مع شريعتهم ويناقض شعورهم بالنفور من الروس وازدرائهم لهم.

تلا الشيوخ دعاءً وأجمعوا على إرسال مبعوثين إلى شامل سائلين إياه العون، ثم شرعوا في إعادة بناء ما تمّ تدميره.

(1) يستخدم تولستوي هنا كلمة «المتعلّمون» العربية التي تُطلَق في القوقاز على طلاب الشريعة والفقه الذي كانوا يدرسون على أيدي الملالي في المساجد والتكايا والحجرات. (م)

- 18 -

في صباح اليوم الثالث بعد الغارة، لكن ليس في الصباح الباكر، خرج بوتلر من الباب الخلفي إلى الشارع لكي يتمشّى ويستنشق الهواء العليل قبل حلول وقت شاي الصباح الذي اعتاد أن يشربه مع بتروف. كانت الشمس قد طلعت من وراء الجبال، وكان يؤلم العين النظر إلى انعكاسها على البيوت الطينية المطلية بالكلس الأبيض على الجانب الأيمن للطريق. وفي المقابل، كان أمراً مبهجاً ويبعث السكينة في النفس النظر إلى الجهة اليسرى، إلى الجبال السود البعيدة الشاهقة التي تكسوها الغابات، وإلى سلسلة الجبال الثلجية الداكنة التي تسعى دوماً إلى محاكاة السحب والمرئية خلل الشقوق بين الجبال الأقرب.

نظر بوتلر إلى تلك الجبال، وتنفّس ملء رئتيه سعيداً بأنه، هو بالذات، على قيد الحياة، وأنه يعيش في هذا المكان الرائع. وأسعده أيضاً بعض الشيء أنه أبلى حسناً في غارة أمس سواء أثناء التقدّم أو التراجع، لا سيما أثناء التراجع، عندما حمي الوطيس. وسرّه أيضاً تذكُّر كيف استضافتهم ماشا، أو ماريّا دميتريفنا، عشيرة بتروف، أمس، عند عودتهم من الحملة، وأنها كانت متبسّطة ولطيفة مع

الجميع، لكنها بدت رقيقة معه بصورة خاصة. فماريا دميتريفنا، بضفيرتها الغليظة ومنكبيها العريضين وصدرها الناهد وابتسامتها المشرقة ووجهها الوديع المغطّى بالنمش، لفتت، عن غير عمد، انتباه بوتلر بوصفه شاباً أعزب قوي البنية، بل وبدا له أنها راغبة فيه. لكنه كان يرى في ذلك إساءة إلى رفيقه الطيب النقيّ السريرة، والتزم معاملة ماريا دميتريفنا بمنتهى اللياقة والاحترام، وكان راضياً عن نفسه جرّاء هذا، وهو يفكّر في ذلك الآن.

شغله عن أفكاره وقع حوافر خيول كثيرة متواصل تناهى إليه من الأمام على الطريق المتربة، كأنما ثمة رجال عديدون يرمحون على خيولهم. رفع رأسه فرأى في آخر الشارع جمعاً من الخيّالة يقتربون بخطوٍ منتظم، وكان يتقدّم عشرين من القوزاق رجلان: أحدهما في سترة شركسية بيضاء وعمامة وطاقية عالية، والآخر ضابط روسي، أسمر، أقنى الأنف، في سترة شركسية زرقاء، بزّته الرسمية وأسلحته مرصّعة بكثيرٍ من الفضة. كان الفارس ذو العمامة يمتطي حصاناً جميلاً أصهب العرف والذيل، صغير الرأس وله عينين رائعتين؛ فيما كان الضابط على صهوة فرس عالية أنيقة كَرَباخية[1]. أدرك بوتلر، المولع بالخيل، حالاً القوة الجسورة للفرس الأولى، وتوقّف ليرى من يكون هؤلاء الناس.

سأل الضابط مخاطباً بوتلر، مدللاً بلكنته وبلغته غير السليمة قواعدياً على منشئه غير الروسي، ومشيراً بسوطه إلى منزل إيفان ماتفييفيتش:

(1) نسبةً إلى إقليم ناغورني كَرَباخ الذي بات معروفاً اليوم جراء الصراع الأرمني – الأذربيجاني عليه.

- هذا بيت قائد؟[1]

أجاب بوتلر: «أجل هو»، ثم سأل متوجهاً نحو الضابط وهو يشير بعينيه إلى الرجل ذي العمامة: «ومن هذا؟»

قال الضابط: هذا الحاج مراد. جاء هنا، وسينزل ضيفاً على قائد.

كان بوتلر يعلم بخصوص الحاج مراد وباستسلامه للروس، لكنه لم يتوقّع مطلقاً رؤيته هنا، في هذا الحصن الصغير.

كان الحاج مراد ينظر إليه بمودّة. حيّاه بوتلر بالتحية التترية التي علّموه إياها:

- خوش كلدي[2].

- ساوبُول[3]. أجاب الحاج مراد هازّاً برأسه، ودنا من بوتلر ومدّ يده المعلّق عليها السوط مصافحاً إياه بإصبعين، وسأل: القائد؟

قال بوتلر مخاطباً الضابط: «كلا، القائد هنا، سأذهب لأناديه»، وصعد الدرج ودفع الباب.

لكن باب «المدخل الأمامي»، كما كانت تسمّيه ماريّا دميترفنا، كان مغلقاً. قرع بوتلر الباب، ولمّا لم يتلقَّ ردّاً دار حول البيت نحو المدخل الخلفي. نادى المراسل (الحاجب)، ولكن حين لم يتلقَّ جواباً ولم يعثر على أيٍّ من المراسلَين دخل المطبخ. كانت ماريّا دميتريفنا - المتورّدة الخدين، وعلى رأسها منديل، وقد شمّرت ردنيها عن ذراعيها الأبيضين المكتنزين - تقطّع لفافة عجينٍ أبيض، كذراعيها، قطعاً صغير لأجل الفطائر.

(1) الركاكة اللغوية مقصودة من قِبل تولستوي.
(2) «أهلًا وسهلًا»، (بالتترية).
(3) «سلمت»، (بالتترية).

سألها بوتلر: أين اختفى المراسلان؟

«ذهبا يسكران» أجابت ماريا دميتريفنا، ثم سألت: «وما شأنك أنت؟».

- افتحي الباب؛ يقف أمام بابكم حشدٌ كامل من الجبليين. لقد وصل الحاج مراد.

قالت ماريا دميتريفنا وهي تبتسم: اخترع شيئاً آخر.

- لست أمزح. حقاً. إنهم يقفون تحت سقيفة الباب.

سألت ماريا دميتريفنا:

- أتقول الصدق؟

- ولِمَ قد أخترع. اذهبي وانظري بنفسك، فهم واقفون عند المدخل.

فقالت ماريا دميتريفنا وهي تسدل ردنيها وتسوّي دبابيس الشعر في ضفيرتها الغليظة:

- قل هذا منذ البداية. سأذهب إذن لإيقاظ إيفان ماتفييفيتش.

فقال بوتلر:

- كلا، سأذهب بنفسي. وأنت، يا بوندارينكو، اذهب وافتح الباب.

قالت ماريا دميتريفنا: «وهذا أيضاً حسن»، وانصرفت إلى عملها من جديد.

حين علم إيفان ماتفييفيتش بوصول الحاج مراد، وكان سبق له أن سمع بوجوده في غروزني، لم يندهش بتاتاً، فنهض ولفّ لفافة تبغ، دخّنها وأخذ يرتدي ملابسه وهو يسعل بصوتٍ عالٍ ويغمغم

ناقماً على القيادة التي أرسلت إليه «هذا الشيطان». وبعد أن ارتدى ملابسه طلب من حاجبه أن يجلب له «الدواء». ولمّا كان الحاجب يعرف أنه يسمّي الفودكا دواءً، جلبها له.

غمغم وهو يكرع الفودكا ويتمزمز بخبز أسمر: «ليس هناك ما هو أسوأ من الخلط، فقد شربت الجيخير أمس، وها هي رأسي تؤلمني». ثم أنهى كلامه قائلاً: «لكنني مستعد الآن»، ومضى إلى غرفة الاستقبال التي سبق أن قاد إليها بوتلر الحاج مراد والضابط المرافق له.

سلّم الضابط المرافق إيفان ماتفييفيتش أمرَ قائد الفيلق الأيسر باستقبال الحاج مراد والسماح له بالتواصل مع الجبليين عبر الجواسيس، ولكن مع عدم السماح له مطلقاً بمغادرة الحصن إلا برفقة خفّارة من القوزاق.

بعد أن قرأ إيفان ماتفييفيتش الورقة حدقّ بإمعان في الحاج مراد ثم أنعم النظر مرةً أخرى في الورقة. وبعد أن تنقّل ببصره عدة مرات بين الورقة والحاج مراد ركّز نظره، آخر الأمر، على الحاج مراد وقال:

- حسناً يا بيك، حسناً. فليُقِم هنا. أخبره أنني تلقّيت أمراً بعدم السماح له بالمغادرة. والأوامر مقدّسة. أما أين يقيم... ما قولك يا بوتلر؟ هل نُسكنه في الديوان[1]؟

لم يكد بوتلر يجيب حتى قالت ماريّا دميتريفنا، التي قدمت من المطبخ وكانت واقفة بالباب، مخاطبةً إيفان ماتفييفيتش:

(1) الديوان: المكتب الرئيس في دائرة ما. ديوان المحافظة مثلًا. (م)

- لِمَ في الديوان؟ فليسكن هنا. سنعطيه المضافة وغرفة المؤونة أيضاً، سيبقى تحت نظرنا على الأقل.

قالت ذلك، ولمّا التقت عيناها بعيني الحاج مراد استدارت وغادرت بسرعة. فقال بوتلر:

- ما الضَيْر في ذلك، أظن أن ماريّا دميتريفنا محقة.

فقال إيفان ماتفييفتش متجهّماً:

- هيا، هيا، اغربي، ليس للنساء شأن هنا.

طوال وقت الحديث كان الحاج مراد جالساً، واضعاً يده على مقبض خنجره، مبتسماً بعض الشيء بازدراء. قال أنْ لا فرق لديه أين يقيم. الأمر الوحيد الذي يلزمه، والذي أذن به قائد الجيش، هو أن تكون لديه إمكانية التواصل مع الجبليين، وبالتالي فإنه يرجو السماح لهم بالمجيء إليه. فقال إيفان ماتفييفيتش إن هذا سيتمّ، وسأل بوتلر الاهتمام بالضيوف ريثما يجلبون لهم ما يأكلون ويعدّون الغرف. أما هو فسيذهب إلى المكتب لكتابة الأوراق المطلوبة وإعطاء الأوامر اللازمة.

لقد تحددت العلاقة بين الحاج مراد ومضيفه الجديد في الحال. فمنذ لحظة التعارف الأولى شعر الحاج مراد تجاه إيفان ماتفييفيتش بالنفور والازدراء وكان يخاطبه دوماً بتعالٍ. أما ماريّا دميتريفنا، التي كانت تعدّ له الطعام وتحضره له، فقد أعجبته كثيراً. أعجبه فيها بساطتها، وجمالها المميز الغريب بالنسبة إليه، والشعور الذي أعطته له بانجذابها اللاشعوري إليه. وقد حرص على عدم النظر، أو التحدث، إليها، لكنّ عينيه كانتا تتوجّهان نحوها رغماً عنه وتتابعان حركتها.

أما بوتلر فقد صادقه على الفور، منذ بدء تعارفهما، وحدّثه كثيراً، وعن طيب خاطر. سأله عن حياته، وحدّثه عن حياته هو أيضاً، وأخبره بالأنباء التي ينقلها إليه الجواسيس عن وضع عائلته، بل حتى طلب نصحه في ما عليه أن يفعل.

الأنباء التي نقلها إليه الجواسيس لم تكن طيبة. فطوال الأيام الأربعة، التي قضاها في الحصن، جاؤوا إليه مرتين، وفي كلتا المرتين نقلوا إليه أنباء سيئة.

- 19 -

نُقلت أسرة الحاج مراد إلى قرية «فيدينو» فور ذهابه إلى الروس، وحُبست هناك تحت الحراسة، في انتظار قرار شامل. النساء - فاطمة العجوز وزوجتا الحاج مراد - وأبناؤهما الصغار الخمسة كانوا يعيشون مخفورين في بيت قائد المئة[1] إبراهيم رشيد. أما ابنه الشاب ذو الأعوام الثمانية عشرة، يوسف، فكان قابعاً في السجن، في حفرة يزيد عمقها على سبعة أقدام، مع أربعة مجرمين ينتظرون، مثله، تقرير مصيرهم.

ولم يصدر القرار لأن شامل كان متغيباً؛ كان في حملة ضد الروس.

في السادس من كانون الثاني عام 1852 عاد شامل إلى فيدينو بعد معركة مع الروس هُزم فيها شامل، من وجهة نظر الروس، وفرّ إلى فيدينو. أما من منظوره ومنظور مريديه جميعاً فقد انتصر على الروس وطردهم. وفي تلك المعركة أطلق شامل النار بنفسه من بندقيته، وكان أمراً نادر الحدوث، واستلّ سيفه وهمّ بإطلاق العنان

(1) يُسجّل لشامل تنظيمه فرق المقاومة القوقازية المبعثرة ضمن تشكيلة شبيهة بتشكيلات الجيش. ويعتبر بعض الباحثين أن في ذلك كان مقتلها، وأن حرب العصابات كانت أجدى في مقاومة جيش قوي كالجيش القيصري وكتائب القوزاق الشرسة. (م)

لفرسه في اتجاه الروس، لولا أن منعه المريدون الذين صحِبوه. وقد قُتل اثنان منهم في الحال إلى جوار شامل.

كان الوقت ظهراً عندما بلغ شامل مكان إقامته، محاطاً بجمعٍ من مريديه الذين راحوا يتبخترون حوله على خيولهم وهم يطلقون النار في الهواء من بنادقهم ومسدساتهم ويهتفون بلا انقطاع «لا إله إلا الله».

كان سكان قرية فيدينو الكبيرة جميعاً في الشارع وعلى السطوح، في استقبال حاميهم، وكانوا كذلك يطلقون النار من أسلحتهم دلالةً على الاحتفاء والنصر. كان شامل يمتطي حصاناً عربياً أبيض ويشدّ اللجام في مرح عند اقترابه من البيت، وكانت زينة الحصان شديدة البساطة، من دون ذهب أو فضة: لجام من الجلد أحمر اللون دقيق الصنع مع خط في منتصفه، وركابان معدنيان لهما شكل الكأس، ومغرفة للماء بارزة من تحت السرج. أما الإمام نفسه فكان يرتدي معطفاً رمادياً من الجوخ مبطّناً بالفراء يظهر حول ردنيه وياقته فراء أسود اللون، ويشدّ قامته الفارعة النحيلة بسَيرٍ أسود مع خنجر، ويضع على رأسه طاقية طويلة مسطّحة من الأعلى ولها شُرّابة سوداء، ملفوفة بعمامة بيضاء يتدلى طرفها إلى ما تحت رقبته. وكان ينتعل في قدميه خفّيْن أخضرَيْن، ويمتد على طول ساقيه زوج من الكلسات السود يزيّنهما رباط بسيط.

بشكل عام لم يكن على الإمام أي شيء برّاق، سواء من الذهب أو الفضة، وكان قوامه الفارع، المنتصب، القويّ، المكتسي بملابس من دون زينة، والمحاط بمريدين ملابسهم موشّاة وأسلحتهم

مرصّعة بالذهب والفضة، يثير انطباع العظمة والأُبّهة ذاك، الذي يرجوه ويجيد إثارته في الناس. أما وجهه الشاحب، المحفوف بلحية صهباء مشذّبة، بعينيه الصغيريتين المزرورتين دائماً، فكان جامداً تماماً، كأنه قُدَّ من صخر. وفيما كان يعبر القرية شعر بآلاف العيون مصوّبةً إليه، لكنّ عينيه هو لم تكونا تنظران إلى أحد. زوجتا الحاج مراد وأبناؤهما كذلك خرجوا مع سكان القرية إلى الشرفة لمشاهدة قدوم الإمام. وحدها فاطمة العجوز - أم الحاج مراد - لم تخرج وظلت جالسة، كما كانت، على الأرض في المسكن، بشعرها الأشيب المشعّث، مطوِّقةً ركبتيها الهزيلتين بذراعيها الطويلين، ترنو إلى الأغصان الخامدة في الموقد، وهي تطرف بعينيها السوداوين المتّقدتين. فهي، مثل ابنها، كرهت شامل على الدوام، والآن أكثر من قبل، ولم تكن تريد رؤيته.

كذلك لم يشهد عودة شامل المظفّرة ابن الحاج مراد، بل سمع وحسب من حفرته المظلمة العطنة صوت طلقات الرصاص والهتافات، وكان يكابد، كما قد يعاني فقط الشباب الممتلئون حياةً، المحرومون من الحرية. فبقبوعه في الحفرة، وبرؤيته طوال الوقت هؤلاء الناس الأشقياء أنفسهم، القذرين، المنهَكين، المعتقلين معه، الذين لا يطيق معظمهم بعضهم بعضاً، كان يحسد بشدّة أولئك الذين ينعمون الآن بالهواء والنور والحرية، ويخبّون على جيادٍ سريعة بفتوّة حول زعيمهم، يطلقون النار ويهتفون معاً «لا إله إلا الله».

بعد أن اجتاز شامل القرية وصل إلى الفِناء الرحب الملاصق للفناء الداخلي حيث تقع السراي، فلقيه أمام بوابة الفناء الأول

المفتوحة ليزغينيان مسلّحان. وكان هذا الفناء ممتلئاً بالناس، فقد كان هناك أناس قدموا من أماكن نائية لشؤونهم الخاصة، وكان هناك متظلّمون، كما كان هناك أيضاً أشخاص استدعاهم شامل لمقاضاتهم والحكم عليهم. وعند دخول شامل الفناء راكباً، نهض كل الموجودين في الفناء وحيّوا الإمام بإجلال واضعين أيديهم على صدورهم. وجثا بعضهم على ركبهم وظلّوا على هذا النحو طوال وقت عبوره من البوابة الخارجية إلى البوابة الداخلية. ورغم أن شامل لمح بين منتظريه الكثير من الوجوه التي يبغضها والكثير من المتظلّمين المستجْدين المضجرين الذين يسألونه أن يرعاهم، إلا أنه مرّ بمحاذاتهم بذاك الوجه الحجري الجامد نفسه، ولمّا بلغ الفناء الداخلي ترجّل أمام رواق جناحه الواقع على يسار الباب من الداخل.

بعد الإنهاك جرّاء الحملة، ليس الجسدي بقدر ما هو الروحي، - ذلك أن شامل، بغضّ النظر عن جهره بأن الحملة قد تكللت بالنصر، كان يعلم أن الحملة لم تكن موفّقة، وأن الكثير من القرى الشيشانية قد أُحرقت ودُمِّرت، وأنّ الشعب الشيشاني، المتقلّب وخفيف العقل، يتذبذب، وبعضٌ منهم، الأقرب إلى الروس، باتوا مستعدين للانضمام إليهم، - كان هذا كله ثقيل الوطء، ولا بدّ من اتّخاذ إجراءات لمواجهته، لكن شامل في هذه اللحظة لم يكن راغباً في عمل شيء، ولم يكن يريد التفكير في أي شيء. كان يريد الآن شيئاً واحداً وحسب: الراحة وبهجة المداعبة الزوجية من قِبل أحبّ زوجاته إليه، أمينة الرشيقة، السوداء العينين، ذات الثمانية عشر عاماً.

لكن الآن ليس فقط لم يكن بإمكانه رؤية أمينة، التي كانت في تلك اللحظة خلف السياج الذي يفصل جناح النساء عن جناح الرجال في الفناء الداخلي (كان شامل واثقاً بأن أمينة وزوجاته الأخريات في هذه اللحظة بالذات يسترقن النظر إليه من خلال شقّ في السياج بينما هو يترجّل عن فرسه)، وليس فقط لم يكن بإمكانه الذهاب إليها، بل كان يستحيل عليه أن يستلقي ببساطة على الفراش المحشو بالريش ويأخذ قسطاً من الراحة. فقد كان عليه أولاً أن يؤدي صلاة الظهر التي ليست لديه أدنى رغبة الآن في أدائها، لكن إغفالها من قِبله، بوصفه الزعيم الديني للشعب، لم يكن غير جائز وحسب، بل وكان تأديتها ضرورياً بالنسبة إليه، هو نفسه، ضرورة الطعام اليومي. لذا فقد توضّأ وصلّى، وبعد أن فرغ من الصلاة شرع يستدعي الذين كانوا في انتظاره.

كان أول من دخل عليه حموّه ومعلّمه جمال الدين، وهو شيخ أشيب طويل القامة حسن الهيئة ذو لحية بيضاء كالثلج ووجه أحمر متورّد، فتلا دعاءً وأخذ يستفسر من شامل حول مجريات الحملة ويروي له ما جرى في الجبال في غيابه.

ومن جملة شتى أنواع الحوادث - كحالات القتل المتعلقة بالثأر، وسرقة الماشية، ومعاقبة مخالفي تعاليم الطريقة[1] كالتدخين وشرب الخمر - أخبره جمال الدين أن الحاج مراد أرسل رجالاً لأخذ أسرته إلى الروس، وأنهم اكتشفوا الأمر ونقلوا الأسرة إلى فيدينو ووضعوها تحت الحراسة في انتظار قرار الإمام. وكان الشيوخ

(1) الأصحّ «الشرع» أو «الشريعة»، لكن تولستوي أورد الكلمة العربية «الطريقة» الدارجة أكثر عند الصوفية. (م)

مجتمعين في غرفة المضافة المجاورة للتباحث في هذه الأمور كلها، ونصح جمال الدين شامل بصرفهم حالاً، فقد مضت ثلاثة أيام وهم في انتظاره.

بعد أن تناول شامل الغداء، الذي أحضرته له زوجته السمراء الحادة الأنف القبيحة وغير المحبوبة لكن المخيفة زايدة[1]، مضى إلى المضافة.

نهض لتحية شامل ستة شيوخ، بيض وشيب وشقر اللحى، بعمائم وبلا عمائم، بطاقيات عالية وفي قفاطين وسترات شركسية جديدة، متمنطقين بخناجر ذات سيور، هم مجلس شوراه. وكان شامل أطول قامةً من الجميع. رفع الجميع، بمن فيهم شامل، أكفّهم وأغمضوا عيونهم وأخذوا يتلون الفاتحة، ثم مسحوا وجوههم بأيديهم نازلين بها إلى ما تحت ذقونهم لتلتقي الواحدة بالأخرى. وبعد تلاوة الفاتحة جلس الجميع، واتّخذ شامل مجلسه في وسطهم على وسادة أعلى من وسائدهم، وشرعوا يتداولون في شتى المسائل العالقة.

وقد أصدروا الأحكام على المذنبين والمجرمين وفق الشريعة: فقد حكموا على اثنين بقطع اليد جزاء السرقة، وعلى ثالث بقطع الرأس جزاء القتل، واستتابوا ثلاثة آخرين وعفوا عنهم. بعد ذلك انهكموا في المسألة الأهم: التفكير في إجراءات لمنع الشيشانيين من الالتحاق بالروس.

(1) هكذا ورد اسمها في الأصل، والأرجح أنه «سعيدة». ففي القوقاز كثيراً ما تُقلب السين زاياً والعين ألفاً. (م)

ولمواجهة ذلك كتب جمال الدين البلاغ التالي:

«إنني أرجو لكم السلام الدائم مع الله القادر على كل شيء. بلغني أن الروس يتملّقونكم ويدعونكم إلى الخضوع لهم. لا تصدّقوهم ولا تذعنوا لهم، بل اصبروا. فإن لم تُجزَوا في هذه الحياة فستُثابون في الآخرة. ولتذكروا ما جرى من قبل، عندما انتزعوا منكم أسلحتكم. ولو لم يهدِكم الله آنذاك - في سنة 1840 - لكنتم الآن جنوداً تحملون الحراب بدلاً من الخناجر، ولخرجت نساؤكم بالسروايل وتدنّسنَ واستُبحن. احكموا على المستقبل بناءً على الماضي. خيرٌ لكم أن تموتوا وأنتم على عداء مع الروس من أن تعيشوا مع الكفّار. فاصبروا، ولسوف آتيكم حاملاً القرآن والسيف وأقودكم في قتال الروس. أما الآن فإني آمركم ليس فقط بألّا تخامركم نية الإذعان للروس بل وأن تطردوا هذه الفكرة من رؤوسكم نهائياً».

وافق شامل على هذا البلاغ واستحسنه، وبعد أن وقّعه أمر بنشره وتوزيعه.

بعد ذلك أخذوا يتداولون مسألة الحاج مراد، وكانت مسألة بالغة الأهمية بالنسبة إلى شامل. فرغم عدم إقراره بذلك إلا أنه كان يعلم أن الحاج مراد، ببراعته وشجاعته وجسارته، لو كان إلى جانبه لما جرى ما يجري الآن في الشيشان. لكان حسناً لو أنه تصالح والحاج مراد واستفاد من خدماته، ولكن إن تعذّر ذلك فلا يجوز، رغم ذلك، السماح بأن يساعد الروس. ولهذا، وفي كل الأحوال، يجب استدعاؤه، وقتله. والسبيل إلى ذلك: إما بإرسال رجل قادر على قتله في تفليس فيقتله هناك، أو باستدعائه والقضاء عليه هنا.

وليست هناك إلا وسيلة وحيدة للقيام بذلك، أسرته، لا سيما ابنه الذي كان شامل يعلم أن الحاج مراد يحبه حباً جمّاً. ولذا يجب العمل من خلال ابنه.

بينما كان مستشاروه يتحدثون عن ذلك، أغمض شامل عينيه ولاذ بالصمت.

كان المستشارون يعلمون أن هذا يعني أنه يصغي الآن إلى الهاتف الداخلي الذي يشير عليه بما عليه أن يفعل. وبعد خمس دقائق من الصمت المهيب فتح شامل عينيه وزرّهما أكثر وقال:

- أحضروا لي ابن الحاج مراد.

فقال جمال الدين: إنه هنا.

وبالفعل كان ابن الحاج مراد، يوسف - النحيل، الشاحب، رثّ الثياب والذي تفوح منه رائحة عطنة، لكن الذي لا يزال، رغم ذلك، وسيماً جميل القوام، بعينيه السوداوين المتّقدتين كعيني جدته فاطمة - واقفاً أمام بوابة الفناء الخارجي منتظراً استدعاءه.

كان يوسف لا يشاطر والده المشاعر تجاه شامل، فهو لم يكن يعرف بما جرى في الماضي، أو أنه كان يعرف ولكن لم يعشه، ولم يكن يفهم سبب عدواة أبيه العنيدة لشامل. فبالنسبة إليه، هو الذي لم يكن يتمنى إلا شيئاً واحداً ألا وهو مواصلة تلك الحياة اللاهية الهيّنة التي كان يعيشها في هونزا، بوصفه ابن نائب، بدا أنّ عداوة شامل لا لزوم لها مطلقاً. وكان، على النقيض من والده، معجباً بشامل جداً ويشعر نحوه بذاك التولّه المتّقد المنتشر في الجبال والذي يصل حدَّ العبادة. وقد دخل المضافة الآن شاعراً بشعور مميز من الرهبة

والإجلال تجاه الإمام، ولمّا توقّف عند عتبة الباب التقى نظره بنظرة شامل الثابتة النفّاذة، فظلّ واقفاً مكانه بعض الوقت ثم دنا منه وقبّل يده البيضاء العريضة الطويلة الأصابع.

- أأنت ابن الحاج مراد؟

- نعم أيها الإمام.

- وهل لك علم بما صنع؟

- أجل أيها الإمام، وآسَف لذلك.

- أتجيد الكتابة؟

- كنت أعدّ نفسي لأصبح مُلّا.

- فاكتب إلى أبيك، إذن، بأنه إن رجع إليّ الآن، قبل عيد الأضحى، فسوف أعفو عنه وسيعود كل شيء كما كان من قبل. وإن لم يرجع وظلّ عند الروس - وهنا عبس شامل متوعّداً - فسأقدّم جدتك ووالدتك سبيتين لأهل القرى الجبلية، وأما أنت فسأقطع رأسك.

لم تطرف عضلة واحدة في وجه يوسف، بل حنى رأسه دلالةً على أنه فهم كلمات شامل.

- اكتب هذا وأعطه لرسولي.

ثم صمت شامل وظل ينظر إلى يوسف طويلاً.

- اكتب إليه بأنّي أشفقت عليك ولن أقتلك ولكني سأفقأ عينيك، كما أفعل بكل الخونة. اذهب.

بدا يوسف هادئاً في حضرة شامل ولكنه، عندما اقتيد خارج

المضافة، انقضّ على الرجل الذي اقتاده واختطف خنجر الرجل من غمده يريد طعن نفسه به، لكن الرجال أمسكوا به من ذراعيه وشدّوا وثاقه واقتادوه ثانيةً إلى الحفرة.

ذلك المساء، بعد أن غابت الشمس وأنهى شامل صلاة المغرب، لبس معطفه الأبيض ومضى إلى الجهة الأخرى من السياج، إلى ذلك القسم من الفناء حيث تقيم زوجاته، وتوجّه إلى غرفة أمينة. لكنها لم تكن هناك، فقد كانت عند الزوجات الأكبر سناً، فكمن شامل خلف الباب في انتظارها، محاذراً أن يراه أحد. غير أن أمينة كانت حانقة على شامل، لكونه أهدى زايدة، لا هي، قطعة قماش من الحرير. وقد رأته وهو يخرج، ويدخل غرفتها، باحثاً عنها، وتعمّدت عدم الذهاب إلى غرفتها بل وقفت طويلاً في باب غرفة زايدة وهي ترنو، مبتسمةً بخفوت، إلى قامة شامل البيضاء، وهو يخرج من غرفتها تارةً ويدخلها أخرى. ولمّا طال انتظار شامل من غير طائل عاد إلى مخدعه، عند حلول وقت صلاة العشاء.

- 20 -

أمضى الحاج مراد في منزل إيفان ماتفييفيتش في الحصن أسبوعاً. ورغم أن ماريّا دميتريفنا تشاجرت مع حنيفي الأشعث (لم يصطحب الحاج مراد سوى اثنين من مريديه: حنيفي وإلدار) وطرده من المطبخ لكونه كاد أن يذبحها، غير أنه كان جلياً أنها تكنّ مشاعر خاصة من الاحترام والإعجاب تجاه الحاج مراد. وهي الآن لم تعد تقدّم له الغداء بنفسها، وأوكلت هذه المهمة إلى إلدار، لكنها لم تكن تفوّت أي فرصة لكي تراه وتخدمه. كما وكانت تشارك بحيوية وحماسة في المفاوضات المتعلقة بأسرته، وباتت تعرف عدد زوجاته وأبنائه وأعمارهم، وكلّما أتاه أحد العيون استفسرت ممّن تستطيع عن نتائج المفاوضات.

أما بوتلر فقد توثّقت أواصر الصداقة بينه وبين الحاج مراد بقوة خلال هذا الأسبوع، وكان الحاج مراد يزوره في غرفته تارةً، وتارةً يذهب بوتلر إليه. وكانا يتحدثان عبر المترجم أحياناً، وأحياناً بوسائلهما الخاصة، بالإشارات، وبالبسمات بشكل خاص. كان جلياً أن الحاج مراد أحبّ بوتلر، وكان هذا يُلحظ من معاملة إلدار له. فحين كان بوتلر يدخل غرفة الحاج مراد كان إلدار يستقبله بفرح

كاشفاً أسنانه عن ابتسامة، ويسارع إلى دسّ الوسائد له ليقعد عليها، ويأخذ عنه سيفه إن كان يحمله.

كما وتعرّف بوتلر إلى حنيفي الأشعث، أخ الحاج مراد في العهد، وصادقه. كان حنيفي يعرف الكثير من الأغاني الجبلية ويحسن غناءها. وكان الحاج مراد، كي يُفرح بوتلر، يستدعي حنيفي ويطلب إليه أن يغنّي، مُسمّياً الأغنيات التي يراها جميلة. كان صوت حنيفي «تينور» عالي النغمة، وكان إنشاده معبّراً وشديد الوضوح. وكانت أغنية يحبها الحاج مراد بصورة خاصة قد أدهشت بوتلر بلحنها الشجيّ الحزين، فسأل المترجم أن يخبره بمضمون الأغنية ودوّنها.

كانت الأغنية تتعلق بموضوع الثأر؛ ذاك الثأر نفسه الذي كان بين حنيفي والحاج مراد.

تقول كلمات الأغنية:

«سيجفّ الثرى على قبري/ وستنسينني يا أمّاه! سينمو العشب على قبري/ ويُخمد حزنك يا أبي العجوز. ستنشف الدموع في عينَي أختي/ ويطير الحزن من قلبها.

لكنك لن تنساني، يا أخي الأكبر، إلى أن تثأر لموتي. ولن تنساني، يا أخي الثاني، إلى أن ترقد إلى جواري.

حارقةٌ أنتِ، أيتها الرصاصة، وتحملين الموت، ولكن ألم تكوني أنتِ أَمَتي الوفيّة؟

وأنتِ أيتها الأرض السوداء، ستُغطّينني، ولكن أليس أنا من كان يدوسكِ بحصانه.

باردٌ أنت أيها الموت، لكنني كنت سيّدك.

ستأخذ الأرض جسدي، وروحي ستتقبّلها السماء».

كان الحاج مراد يستمع إلى هذه الأغنية دائماً وعيناه مغمضتان، وبانتهائها بنغمة طويلة متخامدة كان يقول دائماً باللغة الروسية:

- أغنية جميل، أغنية ذكي.[1]

إن شاعرية الحياة الجبلية المميزة والمثيرة استولت أكثر على قلب بوتلر بمجيء الحاج مراد ومريديه وعيشه على مقربة منهم. وقد حصل لنفسه على قفطان وسترة شركسية وقلشين، وبدا له أنه، هو نفسه، جبليّ ويعيش كما يعيش الجبليون.

يوم رحيل الحاج مراد دعا إيفان ماتفييفيتش عدداً من الضباط لوداعه. كان الضباط جالسين، بعضهم إلى الطاولة التي كانت ماريّا دميتريفنا تصبّ الشاي وبعضهم إلى طاولة أخرى حيث الفودكا والنبيذ الشيشاني والمازة، عندما دخل الحاج مراد الغرفة، وهو يعرج، بخطوات سريعة ورشيقة، مرتدياً ثياب السفر ومسلّحاً بأسلحته.

نهض الجميع وصافحوه تباعاً. دعاه إيفان ماتفييقيتش إلى الجلوس على الأريكة لكنه شكره واقتعد كرسياً قرب النافذة. كان جلياً أن الصمت الذي ساد عند دخوله لم يزعجه قط، وراح ينعم النظر باهتمام في الوجوه كلها وتوقّف بنظرته الحيادية على الطاولة التي عليها «سَماوَر» الشاي والمقبّلات. سأله الضابط النشيط بتروفسكي، الذي كان يرى الحاج مراد لأول مرة، عن طريق

(1) هنا أيضاً اللغة المكسّرة مقصودة. (م)

المترجم، إن كانت تفليس أعجبته. أجاب الحاج مراد: «آيّا»، فقال المترجم: «يقول: أجل».

- وماذا أعجبه فيها؟

أجاب الحاج مراد بكلامٍ ما، فقال المترجم:

- أكثر ما أعجبه المسرح.

- آها، وهل راقه الحفل الراقص في بيت القائد العام؟

عبس الحاج مراد وقال وهو يرنو إلى ماريّا دميتريفنا:

- لكل شعب عاداته. النساء عندنا لا يلبسن على هذا النحو.

- وما الذي لم يَرُقْه؟

أجاب عبر المترجم:

- عندنا قول مأثور يقول: «قدّم الكلب للحمار لحماً، وقدّم الحمار للكلب علفاً، فظلّ كلاهما جائعاً». وهنا ابتسم الحاج مراد، كل شعب تلائمه عاداته وتقاليده.

لم يمتد الحديث أكثر، وانشغل الضباط، بعضهم يشرب الشاي وآخرون يتناولون المقبّلات، وأخذ الحاج مراد قدح الشاي الذي قُدِّم إليه ووضعه أمامه.

سألته ماريّا دميتريفنا وهي تناوله قدح الشاي:

- أتريد قشدة مع الشاي؟ أو ربما كعكة؟

حنى الحاج مراد رأسه.

قال بوتلر وهو يلمس ركبته:

- وداعاً إذن! متى نلتقي ثانيةً؟

ابتسم الحاج مراد وقال له بالروسية:

- وداعاً، وداعاً، يا صديقي بولور[1]! صداقتك متينة.

ثم أضاف مشيراً برأسه كأنما في الاتجاه الذي عليه السير فيه:

- آي نعم، لقد حان الوقت.

ظهر إلدار بالباب وشيء أبيض كبير معلّق على كتفه وبيده سيف. أومأ له الحاج مراد فتقدّم إليه إلدار بخطواته الواسعة وأعطاه بُردةً بيضاء والسيف، فنهض الحاج مراد واقفاً وأخذ البردة وألقاها على ذراعه ثم قدّمها إلى ماريا دميتريفنا وهو يقول شيئاً للمترجم. قال المترجم:

- يقول إنّكِ أُعجبتِ بالبردة، خذيها.

احمرّت ماريّا دميتريفنا خجلاً وقالت:

- لا داعي لذلك.

فقال الحاج مراد:

- هذا واجب. هكذا هي عاداتنا.

قالت ماريّا دميتريفنا وهي تأخذ البردة:

- شكراً لك، وأسأل الله أن تنقذ ابنك.

ثم أضافت تقول لضابط الخيّالة:

- قل له إنني أرجو أن يتمكن من إنقاذ أسرته.

نظر الحاج مراد إلى ماريّا دميتريفنا وأومأ برأسه شاكراً، ثم تناول

(1) يتعمّد تولستوي هنا جعل الحاج مراد يخطئ في لفظ اسم بوتلر. (م)

السيف من يد إلدار وأعطاه لإيفان ماتفييفيتش الذي أخذ السيف وقال للمترجم:

- قل له أن يأخذ فرسي، إذ ليس لدي شيء آخر أهديه.

لوّح الحاج مراد بيده أمام وجهه مشيراً بذلك إلى أنه ليس بحاجة إلى شيء وأنه لن يأخذ فرسه، ثم أشار إلى الجبال وإلى قلبه ومضى نحو المخرج. شيّعه الجميع. أما الضباط الذي ظلوا في الغرفة فقد أخرجوا السيف من غمده، وبعد أن عاينوا نصله جزموا أنه سيف «غُوردا»[1] حقيقي.

شيّع بوتلر الحاج مراد إلى الرواق الخارجي، ولكن فجأةً حدث ما لم يكن في الحسبان وكاد أن يودي بحياة الحاج مراد لولا فطنته وحزمه وبراعته.

ذلك أن سكان قرية طاش كيتشو الكَلميكية، الذين كانوا يكنّون شديد الاحترام للحاج مراد وكثيراً ما كانوا يأتون إلى الحصن فقط لكي ينظروا إلى النائب الذائع الصيت، أنفذوا رسلاً إلى الحاج مراد قبل رحيله بثلاثة أيام يسألونه أداء صلاة الجمعة في مسجدهم. غير أن الأمراء الكَلميك المقيمين في طاش كيتشو كانوا لا يطيقون الحاج مراد وكان هناك ثأر بينهم وبينه، وحين علموا بذلك أعلنوا للناس أنهم لن يسمحوا للحاج مراد بدخول المسجد، فاهتاج الناس ونشب عراك بينهم وبين مناصري الأمراء. هدّأت القيادة الروسية الجبليين وأرسلت من يقول للحاج مراد ألاّ يذهب إلى المسجد، فعدل عن

(1) غُوردا: تسمية تُطلق على نوعية من السيوف والخناجر كانت تُعدّ الأفضل والأكثر قيمةً في القوقاز. والتسمية مأخوذة من اسم صانعها: المعلّم غُوردا. (م)

الذهاب، وظنّ الجميع أن المسألة قد انتهت بذلك. لكن في لحظة رحيل الحاج مراد، عند خروجه إلى الممر الخارجي وبينما كانت الخيول واقفة أمام البوابة، وصل إلى منزل إيفان ماتفييفيتش الأمير الكَلميكي أرسلان خان، وهو من معارف بوتلر وإيفان ماتفييفيتش، وما إن رأى الحاج مراد حتى انتزع مسدسه من حزامه وصوبّه نحوه، ولكن قبل أن يتسنّى له أن يطلق النار اندفع الحاج مراد كالقط، رغم عرجه، من تحت سقيفة البوابة نحو أرسلان خان. أطلق أرسلان خان النار لكنه لم يصبه. أما الحاج مراد فقد هرع نحوه وأمسك بإحدى يديه بلجام فرسه وبالأخرى استلّ خنجره وصرخ بكلامٍ ما بالترية.

ركض بوتلر وإلدار في الوقت نفسه نحو الأعداء وأمسكاهم من أذرعهم، وخرج إيفان ماتفييفيتش على صوت الطلقة، وحين علم بما جرى قال:

- ماذا جرى لك يا أرسلان خان حتى تُقدِم على دناءة كهذه في بيتي! هذا سيئ يا أخي. الرجال يتواجهون في ميدان القتال، أما أن ترتكب مذبحةً كهذه في بيتي!

ترجّل أرسلان خان - وهو رجل ضئيل الحجم أسود الشارب - عن فرسه شاحباً كلّه وهو يرتعد، ورمق الحاج مراد في حقد، ومضى مع إيفان ماتفييفيتش إلى داخل البيت. أما الحاج مراد فقد عاد إلى حيث الخيول باسماً ثقيل الأنفاس.

سأل بوتلر المترجم:

- لمَ أراد قتله؟

فنقل المترجم كلام الحاج مراد:

- يقول إنّ هكذا هو قانونهم. لأرسلان ثأر يطلبه منه، وبالتالي أراد قتله.

سأل بوتلر:

- وماذا لو أدركه في الطريق؟

ابتسم الحاج مراد وقال بالروسية:

- حسناً، سيقتلني، وهذا يعني أنها مشيئة الله. هيا، وداعاً.

وأمسك بعُرف الفرس ومرّ بنظره على مودّعيه جميعاً، والتقت نظرته بنظرة ماريّا دميتريفنا برقّة، فقال لها مودِّعاً:

- وداعاً يا أُميمة، وشكراً.

عادت ماريّا دميتريفنا تقول:

- أسأل الله أن تتمكّن من إنقاذ أسرتك.

لم يفهم ما تقول لكنه استشعر تعاطفها معه فأومأ لها برأسه.

قال بوتلر:

- إيّاك أن تنسى صديقك.

فأجاب الحاج مراد عبر المترجم قائلاً:

- قل له إنني صديق مخلص له ولن أنساه أبداً.

ورغم رِجله العرجاء، ما إن مسّ الركاب حتى رفع جسمه بخفة ورشاقة وامتطى السرج العالي، ثم عدّل سيفه وتحسّس مسدسه بحركة معتادة وانطلق مبتعداً عن بيت إيفان ماتفييفيتش بتلك الهيئة القتالية الأبيّة التي يعتلي بها الجبلي صهوة فرسه. حنيفي وإلدار أيضاً

امتطيا فرسيهما، وبعد أن ودّعا أصحاب الدار والضباط انطلقا خبباً في إثر مرشدهما.

وكالعادة بدأت الأحاديث عن المغادرين.

- يا له من مقدام!

- لقد انقضّ على أرسلان خان كالذئب. تغيّر وجهه تماماً.

قال بتروفسكي:

- لسوف يخدعنا. إنه محتال كبير.

فجأةً تدخلت ماريّا دميتريفنا في الحديث متبرّمةً:

- ليت هناك المزيد من الروس المحتالين على شاكلته. أمضى عندنا أسبوعاً ولم نرَ منه إلا كل خير.

وأردفت:

- إنه لبق، وذكي، ومستقيم.

- ممَّ عرفتِ هذا كله؟

- عرفت وكفى.

قال إيفان ماتفييفيتش وهو يدخل الغرفة:

- لقد افتُتنتِ به، هه؟ لا بدّ أن الأمر كذلك.

- وإن يكن، ما شأنك أنت؟ لمَ قد يدين المرء رجلاً مادام طيباً. صحيح أنه تتري، لكنه رجل صالح.

فقال بوتلر:

- هذه هي الحقيقة يا ماريّا دميتريفنا. أحسنتِ بدفاعكِ عنه.

- 21 -

كانت حياة قاطني الحصون الأمامية على الجبهة الشيشانية تسير كالمعتاد. ومنذ ذلك الحين شنّ الجبليون غارتان هرع لصدّهما السرايا والخيّالة القوزاق ورجال الشرطة، لكن في كلتا الغارتين لم يستطيعوا إيقاف الجبليين. وفي إحدى المرات، في فوزدفيجنسك، سرقوا ثمانية أفراس من على مورد الماء وقتلوا واحداً من القوزاق. ومنذ الغارة الأخيرة، التي تمّ فيها حرق القرية، لم تُشنّ أي غارة أخرى. ولكن كان من المتوقع أن تُشنّ حملة ضخمة في «الشيشان الكبرى» بسبب تعيين الأمير بارياتينسكي[1]، صديق ولي العهد والقائد السابق للفرقة الكَبَردينية، قائداً جديداً للفيلق الأيسر.

فور وصوله إلى غروزني قام الأمير بارياتينسكي، بوصفه الآن قائد الفيلق الأيسر برمّته، بجمع الفرقة بهدف متابعة تنفيذ أوامر القيصر التي كتب بخصوصها تشرنيشيف إلى فورنتسوف. وقد غادرت الفرقة، بعد أن تمّ حشدها، لتتخذ موقعها في اتجاه كورين، حيث عسكر الجنود وأخذوا يحتطبون الغابة.

(1) ألكسندر إيفانوفيتش بارياتينسكي (1814-1879): أمير، وجنرال منذ عام 1856، أصبح محافظ (والي) القوقاز. في العام 1859 أجبر شامل على الاستسلام. كان تولستوي على معرفة شخصية به. (محرر الأصل الروسي)

كان فورونتسوف الشاب يقيم في خيمة رائعة من القماش، وكانت زوجته ماريّا فاسيليفنا كثيراً ما تأتي إلى المعسكر وتبقى. ولم تكن العلاقة بين بارياتينسكي وماريّا فاسيليفنا خافيةً على أحد، لذا كان الضباط غير النبلاء والجنود يشتمونها بألفاظ نابية، إذ كان يتم إرسالهم إلى نقاط الحراسة الليلية بسبب وجودها في المعسكر. فقد كان الجبليون عادةً يجرّون المدافع إلى مقربة من المعسكر ويطلقون القذائف، وكانت القذائف بوجه عام تخطئ أهدافها، لذا لم تكن تُتّخذ أي إجراءات في مواجهة قذائفهم هذه؛ ولكن لمنع الجبليين من استقدام المدافع وإفزاع ماريّا فاسيليفنا كان يتم إرسال فرق الاستطلاع. وكان الذهاب كل ليلة إلى المخافر الأمامية لكي لا تفزع الأميرة أمراً مهيناً ومثيراً للاشمئزاز، لهذا السبب كان الجنود والضباط الذي لا يُستَقبلون في أوساط عليّة القوم ينعتون ماريّا فاسيليفنا بكلمات نابية.

وقد وصل بوتلر إلى تلك الفرقة، قادماً في إجازة من حصنه، لرؤية زملاءه في الدراسة والجندية في فيلق باژسكي الذين يخدمون ياورية ومراسلين للقيادة في كتيبة كورين. وقد سُرّ كثيراً أول وصوله، حيث نزل في خيمة بولتاراتسكي والتقى هنا الكثير من معارفه الذين رحّبوا به بفرح. كما وعرج على فورونتسوف الذي كان يعرفه بعض الشيء، حيث خدما معاً في الكتيبة نفسها ذات يوم. وقد استقبله فورونتسوف بلطفٍ بالغ وقدّمه إلى الأمير بارياتينسكي ودعاه إلى الغداء الوداعي الذي أعدّه على شرف قائد الفيلق الأيسر الذي سبق بارياتينسكي، الجنرال كوزلوفسكي.

كان الغداء رائعاً. فقد نُصبت ستّ خيام صفاً واحداً، ومُدّت مائدة على طولها جميعاً، وُضعت عليها أواني الطعام وزجاجات الخمر. كان كل شيء يُذكّر بعيش الحرس الإمبراطوري في بطرسبورغ. جلس الضيوف إلى المائدة الساعة الثانية، وجلس في صدر المائدة كوزلوفسكي من جهة وبارياتينسكي من الجهة الأخرى، وعلى يمين كوزلوفسكي جلس فورونتسوف، وعلى يساره زوجته. وعلى امتداد المائدة في كلا الجانبين جلس ضباط الكتيبتين الكَبَردينية والكورينية. وقد جلس بوتلر إلى جانب بولتوراتسكي، وكان كلاهما يثرثران ويشربان مع الضباط المجاورين. وعندما قُدِّم الطبق الرئيسي الساخن وراح الحجّاب يملؤون كؤوس الشمبانيا قال بولتوراتسكي لبوتلر في هلع حقيقي:

- سيجلب صاحبنا الخزي لنفسه.

- لماذا؟

- لأن عليه أن يلقي كلمة، ولكن انظر إلى حاله، هل يقدر على ذلك؟

وأخذ الضباط يقولون فيما بينهم:

- فعلاً يا أخ، فهذا ليس مثل الاستيلاء على الخنادق تحت وابل الرصاص. عدا عن أن ثمة سيدة تجلس إلى جواره فضلاً عن هؤلاء السادة النبلاء. الحق أن من المحزن النظر إليه.

ولكن ها قد حانت اللحظة الحاسمة، فنهض بارياتينسكي وتوجّه إلى كوزلوفسكي بكلمة مقتضبة رافعاً قدحه. ولمّا فرغ من كلامه نهض كوزلوفسكي وشرع يقول بصوتٍ صلب بما فيه الكفاية:

- بموجب مشيئة جلالته السامية، سوف أغادركم وأفارقكم أيها السادة الضباط، ولكن اعتبروني بينكم دائماً... وإنكم تعلمون، أيها السادة، علم اليقين أن «الوحيد في الميدان ليس محارباً». لذا فإن جميع المكافآت التي نلتها أثناء الخدمة، وكل النعم العظيمة التي أنعم بها عليَّ مولانا الإمبراطور، وكذلك مكانتي وسمعتي الطيبة، كل شيء، كل شيء قاطبةً، هذا كله... (وهنا تهدّج صوته) إنما أنا مدين به لكم، وفقط لكم، يا أصدقائي الأعزاء! (وتغضّن وجهه المتغضّن أصلاً أكثر، ونشج وترقرقت عيناه بالدموع) وإنني أعرب لكم من كل قلبي عن عميق امتناني...

ولم يستطع كوزلوفسكي مواصلة الكلام، فنهض وراح يعانق الضباط الذين أخذوا يتقدّمون نحوه. تأثّر الجميع بكلامه، وغطّت الأميرة وجهها بمنديل، وطرف الأمير سيميون ميخائيلوفيتش بعينه لاوياً فمه. كما وأدمعت عيون كثيرٍ من الضباط. بل حتى بوتلر، الذي كان بالكاد يعرف كوزلوفسكي، عجز عن حبس دموعه، فقد أُعجب بهذا كله أيّما إعجاب. ثم بدأت الأنخاب، في صحة بارياتينسكي، وفي صحة فورونتسوف، وفي صحة الضباط، والجنود، وخرج الضيوف من الوليمة ثملين ومخمورين بالنبيذ وبالزهوّ العسكري الذي هم أصلاً ميّالين إليه بصورة خاصة.

كان الطقس مذهلاً، مشمساً، ساكناً، والهواء رطباً منعشاً. كانت النيران تتوهج في الأرجاء كلها، والأغنيات تصدح. بدا الجميع وكأنهم يحتفلون بشيءٍ ما. ذهب بوتلر إلى بولتوراتسكي وهو في أسعد وألطف حالاته النفسية، وكان الضباط مجتمعين

عند بولتوراتسكي، وقد بسطوا طاولة لعب الورق، وحدّد الياور قيمة مبلغ المقامرة بمئة روبل. خرج بوتلر من الخيمة مرتين ويده في جيب بنطاله تمسك بمحفظته، لكنه لم يتمالك نفسه في نهاية المطاف، وبدأ يقامر رغم كلمة الشرف التي أعطاها لنفسه ولإخوته. ولم تكد تمضي ساعة حتى كان بوتلر يجلس متكئاً على الطاولة بمرفقيه، محمرّاً كله، متعرّقاً، وملطّخاً بالطباشير، وهو يسجّل أرقام رهوناته في زوايا الأرواق المكرمشة. لقد بلغت خسارته حداً بحيث خشي أن يحسب المبلغ الذي صار مَديناً به. وكان يعلم، من دون أن يحسب، أنه حتى لو دفع كل رواتبه التي يستطيع استلامها مسبقاً وثمن فرسه فإنه لن يتمكّن من سداد ما سجّله الياور الذي لا يعرفه في حسابه. ولكان واصل اللعب لولا أن الياور وضع، بوجهٍ صارم، الورق من يديه البيضاوين النظيفتين الكبيرتين وراح يحسب خسائر بوتلر في جدول الأرقام المكتوب بالطباشير، فسأله بوتلر مرتبكاً أن يعذره لكونه لا يستطيع أن يدفع الآن كل ما خسره وقال إنه سيرسل إليه المال من البيت، ولمّا قال ذلك لاحظ أن الجميع أسفوا لحاله، حتى بولتوراتسكي، وكانوا يتجنّبون نظرته. كانت تلك ليلته الأخيرته، وكان الأحرى به عدم اللعب والذهاب إلى فورونتسوف الذي استدعاه، «ولكان كل شيء على ما يرام»، قال في نفسه. أما الآن فالأمور ليست فقط على غير ما يرام، بل ومريعة.

استأذن بوتلر رفاقه وأصدقاءه وعاد إلى بيته، وفور وصوله رقد لينام، ونام ثماني عشرة ساعة متواصلة، كما ينام الناس عادةً بعد الخسارة. وقد فهمت ماريّا دميتريفنا، لأنه طلب منها خمسين

كوبيكاً ليعطيها للقوزاقي الذي رافقه لأجل الشاي[1] ومن خلال مظهره الكئيب، أنه قد خسر في لعب الورق، وأخذت تقرّع إيفان ماتفييفيتش لأنه أذن له بالذهاب.

استيقظ بوتلر في اليوم التالي في الساعة الثانية عشرة، وإذ تذكّر وضعه أراد أن يغرق من جديد في النسيان الذي غادره تواً، لكن هذا كان مستحيلاً، فقد كان عليه اتخاذ الإجراءات اللازمة لدفع الأربعمئة والسبعين روبلاً التي ظلّ مديناً بها لشخصٍ غريبٍ عنه، وكان أحد هذه الإجراءات أن كتب رسالةً إلى أخيه مُقرّاً بذنبه ومتوسّلاً إليه أن يرسل له للمرة الأخيرة خمسمئة روبل من حساب الطاحونة التي مازالت ملكيتها مشتركة بينهما. ثم كتب إلى قريبةٍ له بخيلة سائلاً إياها أن تقرضه تلك الخمسمئة روبل نفسها بنسبة الفائدة التي تريدها. وبعد ذلك ذهب إلى إيفان ماتفييفيتش، حيث كان يعلم أنّ لديه، أو الأحرى لدى ماريّا دميتريفنا، مالاً، وسأله أن يقرضه خمسمئة روبل.

قال له إيفان ماتفييفيتش:

- كنت أعطيتك، بل كنت أعطيتك حالاً، لكن ماشكا لن تعطي. إنهن، هؤلاء النسوة، يعلم الشيطان أنهن شديدات البخل. ولكن، اللعنة، لا بدّ من الخلاص من هذه الورطة. ذاك الشيطان، صاحب المقصف[2]، أليس لديه مال؟

(1) «لأجل الشاي» تعبير دارج عندنا أيضاً، ويعني «بقشيش»، «إكرامية»، «حلوان»... (م)
(2) كانت القطعات في الجيوش في القرن التاسع عشر تُلزم تموينها بالطعام والشراب وغيرها من البقالة لأحد التجار أو الباعة. وهؤلاء غير الميّارين الذي كانوا موظفين مدنيين يعملون في قسم التموين في الجيش ويتقاضون رواتبهم من الدولة. (م)

لكن لم يكن هناك أمل في محاولة اقتراض المال من صاحب المقصف، لذا لم يكن ثمة سبيل لخلاص بوتلر إلا عن طريق أخيه أو قريبته البخيلة.

- 22 -

لمّا لم يبلغ غايته في الشيشان عاد الحاج مراد إلى تفليس وصار يذهب إلى فورونتسوف كل يوم، وكلّما استقبله توسّل إليه أن يجمع الجبليين الأسرى ويبادلهم بأسرته، ومن جديد أخذ يقول إنه من دون ذلك موثق اليدين ولا يستطيع أن يخدم الروس ويقضي على شامل كما هي رغبته. وكان فورونتسوف يعده في غموض بأن يفعل ما يستطيع، لكنه كان يؤجّل الأمر قائلاً إنه سيحلّ المسألة عند مجيء الجنرال أرغوتينسكي إلى تفليس ويبحث الموضوع معه. عندها راح الحاج مراد يسأل فورونتسوف السماح له بالسفر لبعض الوقت والإقامة في «نوخا»، وهي بلدة صغيرة في إقليم ماوراء القوقاز، حيث قدّر أن ذلك أنسب له من أجل التفاوض مع شامل والتواصل مع الناس المخلصين له بخصوص أسرته، فضلاً عن وجود مسجد في بلدة نوخا المسلمة[1]، حيث من المريح له أكثر أداء الصلوات

(1) يستخدم تولستوي كلمة «المحمدية» بدلًا من «المسلمة». وحتى في كتاباته الفكرية وتأملاته الفلسفية يستخدم «العقيدة المحمدية» بدلاً من «الإسلام» أو «الديانة الإسلامية»، وذلك انطلاقاً من قناعته التي شرحها باستفاضة في كتابه «جوهر عقيدتي» ومفادها أنّ الأديان كلها ليست سوى تفريعات وتفسيرات لعقيدة إيمانية واحدة ووحيدة. وكان يؤمن بنبوة النبي محمد، الأمر الذي دفع بعضهم إلى الزعم بأنه اعتنق الإسلام قبل وفاته، وهذا لم يحدث، حسب علمي، لأنه لم يكن يرى فارقاً بين المسيحية والإسلام. ومن المعروف أن الكنيسة الروسية الأرثوذكسية اعتبرت أفكاره هرطقات وحكمت عليه بالحرمان الكنسي. (م)

المفروضة بموجب الشريعة الإسلامية. كتب فورونتسوف إلى بطرسبورغ في هذا الشأن، بيد أنه أذن للحاج مراد، مع ذلك، بالسفر إلى نوخا.

بالنسبة إلى فورونتسوف والسلطات في بطرسبورغ، كما بالنسبة إلى معظم الروس، العارفين بقصة الحاج مراد، كانت هذه القصة إما تحولاً سعيداً في الحرب القوقازية أو ببساطة حدثاً شيقاً. أما بالنسبة إلى الحاج مراد، لا سيما في الآونة الأخيرة، فقد كانت تحولاً فظيعاً في حياته. فقد فرّ من الجبال للنجاة بحياته من جهة وبسبب كرهه لشامل من جهة أخرى، ورغم صعوبة هذا الفرار فقد بلغ مرامه، وقد سرّه نجاحه في بادئ الأمر وكان يخطّط فعلاً لمهاجمة شامل. لكن تبيّن أن مغادرة أسرته، التي كان ظنّها أمراً يسيراً، كان أصعب مما توقّع. فقد قبض شامل على أسرته وحبسها في الأسر، وتوعّد بتوزيع النساء على القرى سبايا وبقتل ابنه أو جعله أعمى. والآن انتقل إلى نوخا بقصد محاولة تحرير أسرته من قبضة شامل عن طريق أنصاره في داغستان سواء بالحيلة أم بالقوة. وقد أنبأه الجاسوس الأخير، الذي جاءه في نوخا، أنّ المخلصين له من الأفاريين يعدّون العدّة لخطف أسرته والانتقال معها إلى جانب الروس، إلا أن الناس المستعدين للقيام بذلك قليلون جداً ولا يقدرون على ذلك في مكان الأسر، فيدينو، وإنما فقط في حال نقل الأسرة من فيدينو إلى مكان آخر، وحينذاك سيقومون بذلك في الطريق. فأوعز إليه الحاج مراد أن يخبر أصدقاءه أنه يعدهم بثلاثة آلاف روبل لقاء إنقاذ أسرته.

في نوخا خُصِّص للحاج مراد بيت كبير من خمس غرف، غير بعيد عن المسجد وعن قصر الخان. وأقام في البيت نفسه الضباط المفرزون لمرافقته والمترجم وأتباعه. وكان يقضي أيامه في انتظار عيونه في الجبال ولقائهم وفي النزهة المسموحة له على جواده في ضواحي نوخا.

في الثامن من نيسان، عند عودته من نزهته، علم الحاج مراد بقدوم أحد الموظفين من تفليس في غيابه، ورغم شوقه الشديد لمعرفة ماذا جلب له الموظف إلا أنه مضى إلى غرفته وأدّى صلاة الظهر قبل الذهاب إلى الغرفة التي كان ينتظره فيها رئيس الحرس والموظف، ولمّا فرغ من الصلاة مضى إلى الغرفة التي كانت غرفةً للضيوف وللاستقبال في الوقت نفسه. الموظف القادم من تفليس، كان مستشاراً محلياً بديناً اسمه كيريللوف، وفد نقل إلى الحاج مراد رغبة فورنتسوف في أن يذهب إلى تفليس في الثاني عشر من الشهر للقاء الجنرال أرغوتينسكي.

قال الحاج مراد محتداً: حسنٌ.

لم يرقه الموظف.

- هل أحضرت المال؟

- أحضرته، قال كيريللوف.

فقال الحاج مراد مشيراً بأصابعه العشرة ثم بأربعة:

- لقاء أسبوعين الآن. هاته.

فقال الموظف وهو يخرج محفظةً من حقيبة السفر: «حالاً»، ثم قال لرئيس الحرس بالروسية مفترضاً أن الحاج مراد لا يفهمها:

«وما حاجته بالمال؟»، لكن الحاج مراد فهم ورمق كيريللوف في غضب. أراد كيريللوف التحدث إلى الحاج مراد، وهو يخرج المال من المحفظة، لكي يكون لديه ما ينقله إلى فورنتسوف عند عودته، فسأله، من خلال المترجم، إن كان يشعر بالضجر هنا. رمق الحاج مراد الموظف القصير البدين ذي الثياب المدنية والأعزل من السلاح بطرف عينه في ازدراء ولم يجب. كرّر المترجم السؤال.

- قل له إنني لا أريد التحدث إليه. فليعطني المال وكفى.

وبقوله هذا جلس الحاج مراد إلى الطاولة ثانيةً لكي يعدّ المال.

ولمّا أخرج كيريللوف الليرات الذهبية ورتّبها في سبعة أعمدة كل منها عشر ليرات (كان الحاج مراد يتلقّى خمس ليرات ذهبية في اليوم) ودفعها نحو الحاج مراد، وضعها هذا في ردن سترته الشركسية ثم نهض واقفاً وربّت بصورة غير متوقعة بتاتاً على كتف المستشار المحلّي وهمّ بمغادرة الغرفة. قفز المستشار المحلّي واقفاً وطلب إلى المترجم أن يقول له إنه لا ينبغي له التجرّؤ على القيام بذلك لأنه برتبة عقيد في الجيش. وهو ما أكّده رئيس الحرس أيضاً. لكن الحاج مراد أومأ له برأسه مشيراً بأنه يعلم ذلك، وخرج.

قال رئيس الحرس:

- ما العمل مع أمثاله؛ سيطعنك بالخنجر وينتهي الأمر. يستحيل التحدث إلى هؤلاء الشياطين، وأرى أنه بدأ يلعب بذيله.

ما إن حلّ الغروب حتى وصل من الجبل جاسوسان منقّبان بكوفيتين حتى العيون، قادهما رئيس الحرس إلى غرفة الحاج مراد.

كان أحدهما تافليني[1] أسمر البشرة، والآخر عجوز نحيل. الأنباء التي حملوها إلى الحاج مراد لم تكن مفرحة. فأصدقاؤه الذين كانوا ينوون إنقاذ أسرته يرفضون صراحةً الآن القيام بذلك، خوفاً من شامل الذي توعّد كل من يقدّم العون إلى الحاج مراد بقتله شرّ قتلة. بعد أن استمع إلى ما قصّه عليه الرجلان جلس الحاج مراد ومرفقاه على رجليه المتقاطعتين مطرقاً برأسه المعمّم وصمت طويلاً. كان يفكّر، ويفكّر بشكل حاسم وقاطع. كان يدرك أنها آخر مرة يفكّر فيها، وأنه لا بدّ من اتخاذ قرار. ثم رفع رأسه وقال وهو يعطي كلاً من الرجلين ليرةً ذهبية:

- اذهبا.

- كيف سيكون الجواب؟

- سيكون الجواب الذي سيلهمنيه الله. انطلقا.

نهض الجاسوسان وغادرا، وظل الحاج مراد جالساً على السجادة متكئاً بمرفقيه على ركبتيه. ظل على هذه الحال طويلاً وهو يفكّر.

قال في نفسه: «ما العمل؟ هل أصدّق شامل وأعود إليه؟ لكنه ثعلب، يكذب. وحتى لو لم يكن يكذب، محال أن أذعن له، هذا المخادع الأصهب. محال لأنه لن يثق بي الآن بعد أن صرت عند الروس».

هكذا قال الحاج مراد في سرّه، وتذكّر الحكاية التافلينية عن صقرٍ أُمسك به، وعاش بين الناس، ثم عاد إلى ذويه في الجبال. وقد

(1) التافلين هم سكان جبال شمال داغستان.

عاد مقيداً بأصفاد ذات أجراس صغيرة، فلم تستقبله الصقور وقالت له: «عد إلى حيث وضعوا عليك هذه القيود الفضية، فليست لدينا قيود ولا أجراس». لم يرغب الصقر في أن يهجر موطنه فبقي هناك، لكن الصقور الأخرى لم تتقبّل وجوده ونقرته بمناقيرها حتى مات.

قال الحاج مراد في سرّه: «سينقرونني أنا أيضاً على هذا النحو. هل أبقى هنا، وأُخضع القوقاز برمّتها للقيصر الروسي، وأنال المجد والمراتب والثروة؟»

«هذا ممكن»، فكّر الحاج مراد وهو يتذكر لقاءاته بفورونتسوف وكلمات الأمير العجوز المتملقة.

«لكن لا بدّ من أن أحسم أمري الآن، وإلا أهلك شامل أسرتي».

لم ينم الحاج مراد طوال الليل وهو يفكّر.

- 23 -

عند انتصاف الليل كان قد استقرّ على قرار، فقد قرّر أنّ عليه الهرب إلى الجبال وشقّ طريقه مع الأفاريين الأوفياء له إلى فيدينو، فإما أن يموت أو ينقذ أسرته. لكنه لم يقرر ما إن كان سيعود بأسرته إلى عند الروس أم يهرب بها إلى هونزا ويقاتل شامل. الأمر الوحيد الذي كان يعرفه هو أن عليه الآن الهرب من الروس إلى الجبال، وبدأ ينفذ قراره هذا حالاً، فتناول قفطانه الأسود من تحت الوسادة ومضى إلى غرفة أتباعه، الذين كانوا يقيمون في آخر الممر الخارجي. وما إن دخل الممر من الباب المفتوح حتى لفحته رطوبة الليلة المقمرة النديّة وسفعت أذنيه زقزقة وزغردة بضعة عنادل معاً من الحديقة الملاصقة للبيت.

عبر الحاج مراد البهو وفتح باب غرفة أتباعه. لم يكن في الغرفة نور، إلا أن القمر الفتي كان يضيئها عبر النافذة. كانت الطاولة وكرسيان موضوعة جانباً، وكان رجاله الأربعة راقدين على السجاد والعباءات على الأرض، فيما حنيفي كان نائماً مع الخيول في الفناء. حين سمع حمزالو صرير الباب نهض وتلفّت حوله، وإذ رأى أنه الحاج مراد عاد ورقد ثانيةً. أما إلدار الذي كان مضطجعاً جواره

فقد وثب واقفاً وراح يرتدي قفطانه في انتظار الأوامر، في حين كان قُربان[1] وخان محمه نائمين. وضع الحاج مراد قفطانه على الطاولة فأصدر صوتاً أصمَّ حين اصطدم بسطح الطاولة. كان هذا صوت الليرات المذهبية المخيطة فيها.

قال الحاج مراد لإلدار وهو يعطيه الليرات التي تسلّمها اليوم:

- قم بخياطة هذه أيضاً.

أخذ إلدار الليرات واستلّ فوراً سكيناً صغيرة من تحت خنجره ومضى إلى حيث الضوء وشرع يفتق بطانة القفطان. نهض حمزالو أيضاً وجلس متربّعاً، فقال له الحاج مراد:

- وأنت يا حمزالو، قل للرجال أن يعاينوا البنادق والمسدسات ويجهّزوا الذخيرة. سنرحل بعيداً غداً.

قال حمزالو: «يوجد بارود، وتوجد طلقات. سيكون كل شيء جاهزاً»، وزمجر بكلامٍ ما غير مفهوم.

فهم حمزالو لماذا طلب إليه الحاج مراد تذخير البنادق، وهو منذ البداية لم يكن يتمنى سوى أمر واحد: أن يقتل ويذبح قدر ما يستطيع من الكلاب الروس والفرار إلى الجبال، وكلما مضى الوقت كانت رغبته هذه تشتد أكثر فأكثر. وقد رأى الآن أنّ الحاج مراد يريد الشيء ذاته، وكان سعيداً بذلك.

بعد مغادرة الحاج مراد أيقظ حمزالو الرفاق، وعمل الأربعة طوال الليل وهم يتفحّصون البنادق والمسدسات والمقادح والصوّان، ويغيّرون التالف منها، فنثروا البارود الرطب على الرفوف، وحشوا

(1) هو نفسه باتا الذي مرّ ذكره. (م)

أحزمة الطلقات بخراطيش مذخّرة بالبارود وبالطلقات الملفوفة في خرق مزيّتة، وشحذوا السيوف والخناجر ودهنوا نصالها بالشحم.

خرج الحاج مراد إلى الممر الخارجي مرةً أخرى قبل أن ينبلج الصبح كي يأخذ ماءً ليتوضأ. كان تغريد العنادل في الخارج الآن، قبل شروق الشمس، أعلى من الأمس. أما في غرفة المريدين فكانت تتناهى الهسهسة والصلصلة الرتيبة لشحذ حديد الخناجر بحجر الصوّان. غرف الحاج مراد الماء من البرميل وكان قد اقترب من باب غرفته حين سمع من غرفة مريديه، فضلاً عن صوت شحذ الخناجر، صوت حنيفي الرقيق الذي كان يغنّي أغنيةً يعرفها الحاج مراد، فتوقف وراح يصغي.

كانت الأغنية تروي قصة حمزة المقدام وكيف غنم هو وفتيانه الشجعان قطيعاً من الجياد البيض من الروس، وكيف طارده فيما بعد أمير روسي وأدركه في ما وراء منطقة «تيريك» مع جيش كبير كغابة وطوّقوه. ثم تابعت الأغنية تحكي كيف قام حمزة ورجاله الشجعان بذبح الخيول وجعلوا من الخيول الذبيحة متراساً مضرّجاً بالدم قاتلوا من خلفه الروس طالما كانت هناك طلقات في بنادقهم ومادامت الخناجر في أحزمتهم والدماء في عروقهم. وكيف أن حمزة، قبل أن يموت، رأى طيوراً في السماء فصاح بها: «هيه أيتها الطيور الجارحة، طيري إلى ديارنا وقولي لأخواتنا وأمهاتنا وفتياتنا البيضاوات إننا لم نمت إلا في سبيل الجهاد. قولي لهم إن أجسادنا لن ترقد في القبور وإنما ستلتهم عظامنا الذئاب الجَشعة وستنقر الغربان السود عيوننا».

بهذه الكلمات اختُتمت الأغنية، وإلى هذه الكلمات الأخيرة،

ذات النغمة العذبة الشجيّة، انضمّ الصوت الصدّاح لخان محمه الذي هتف بصوتٍ عالٍ في نهاية الأغنية: «لا إله إلا الله»، وزعق بصوتٍ حاد. ثم سكن كل شيء، ولم يعد يُسمع خلف الباب مرةً أخرى سوى زقزقة العنادل وتغريدها من الحديقة وهسهسةً منتظمة ومن حين إلى آخر صفير الزحلقة السريعة لحجر الشحذ على حديد الخناجر.

وقد شرد الحاج مراد بحيث لم يلحظ أنه أمال الإبريق وأن الماء تنسكب منه، فهزّ رأسه ودخل غرفته.

بعد أداء صلاة الفجر تفحّص الحاج مراد أسلحته وجلس على سريره، إذ لم يعد هناك ما يفعله. كان عليه أن يستأذن رئيس الحرس لكي يغادر، لكن الفناء كان لا يزال معتماً، ورئيس الحرس لا يزال نائماً.

ذكّرته أغنية حنيفي بأغنية أخرى من تأليف والدته. كانت الأغنية تروي ما حدث فعلاً. وقد جرت تلك الحادثة فور ولادته، حيث روتها له والدته.

كانت الأغنية تقول:

«مزّق خنجرك الفولاذي صدري الأبيض، وأنا ضممتُ إليه طفلي، ولدي، وغسلته بدمي الحار، وقد التأم الجرح من دون أعشاب أو جذور. لم أخشَ الموت، ولن يخشاه أيضاً ولدي الشجاع».

كلمات هذه الأغنية كانت موجّهة إلى والد الحاج مراد، وفحواها أنه عندما ولد الحاج مراد أنجبت زوجة الخان ابنها الثاني،

أُمّة خان، وطلبت استقدام والدة الحاج مراد، التي أرضعت ابنها الأكبر أبونونتسال، مرضعةً لابنها. لكن فاطمة لم ترغب في ترك ابنها ورفضت الذهاب، فغضب والد الحاج مراد وأمرها بالذهاب، فلمّا رفضت ثانيةً طعنها بخنجره ولكان قتلها لو لم يبعدوه. وهكذا لم تعطِ ابنها لمرضعة أخرى وأرضعته بنفسها، وألّفت أغنيةً تروي هذه الحادثة.

تذكّر الحاج مراد أمه عندما كانت تضجعه إلى جوارها، تحت المعطف، على سطح البيت، لينام، وتغني له هذه الأغنية، فكان يسألها أن تريه جنبها، حيث ترك الجرح أثراً. لقد تجسّدت أمه أمامه حقيقيةً، لا عجوزاً متغضّنة شيباء ببضعة أسنان مبعثرة، كما تركها الآن، بل شابة جميلة ومن القوة بمكان بحيث أنها كانت تحمله في سلة على ظهرها عبر الجبال عند جده عندما كان قد أصبح في الخامسة من العمر وبات ثقيلاً.

وتذكّر أيضاً جده المتغضّن بلحيته الشيباء، وكيف كان يسكّ الفضة بيديه المكتنزتين القويتين ويجبر حفيده على الصلاة. تذكّر نبع الماء أسفل الجبل، حيث كان يذهب مع والدته لجلب الماء وهو متشبّث بسروالها. تذكّر كلبتهم الهزيلة التي كانت تلحس وجهه، وتذكر بشكل خاص رائحة وبخار الحليب الحامض عندما كان يذهب وراء أمه في السراي، حيث كانت تحلب البقر وتخضّ الحليب. تذكّر كيف حلقت أمه شعره للمرة الأولى وكيف رأى، في دهشة، رأسه المدوّرة الزرقاء في الإناء النحاسي اللامع المعلّق على الجدار.

وإذ تذكّر نفسه عندما كان صغيراً، تذكّر أيضاً ابنه الحبيب يوسف الذي حلق له شعر رأسه بنفسه أول مرة. لقد أصبح يوسف ابنه الآن فارساً شاباً وسيماً. تذكّر ابنه الآن كما رآه آخر مرة، وكان ذلك في اليوم الذي غادر فيه تسلماس. فقد أحضر له ابنه حصانه وسأله أن يسمح له بتشييعه. كان مرتدياً ملابسه ومسلّحاً ويمسك بعنان فرسه. كان وجه يوسف المتورّد الجميل وقامته الفارعة الرشيقة (كان أطول من أبيه) ينضحان ببسالة الشباب وبهجة الحياة، وكان منكباه العريضان، رغم صغر سنّه، وخصره الفتيّ العريض جداً، وقامته الهيفاء الفارعة، ويداه الطويلتان القويتان، وقوته ورشاقته وخفّة حركته، تفرح أباه دائماً، وكان الأب ينظر دائماً إلى ابنه بإعجاب.

قال له الحاج مراد:

- يستحسن أن تبقى. إنك وحدك في البيت الآن. اعتنِ بأمك وجدتك.

وتذكّر الحاج مراد سيماء البسالة والزهو التي جعلت يوسف يتورّد من النشوة وهو يقول إنه مادام حياً لن يمسّ أحد أمه وجدته بسوء. ومع ذلك فقد امتطى يوسف فرسه وشيّع أباه حتى جدول الماء، ومن هناك عاد أدراجه، ومنذ ذلك الحين لم يرَ الحاج مراد زوجته، ولا أمه، ولا ابنه.

وهذا الابن الرائع، يريد شامل أن يعميه! أما ماذا سيفعلون بزوجته فلم يكن يريد مجرَّد التفكير فيه هذا الأمر.

أثارت هذه الأفكار الحاج مراد بحيث لم يعد قادراً على

الجلوس، فوثب من مكانه ومضى مسرعاً إلى الباب وهو يعرج وصاح منادياً إلدار. لم تكن الشمس قد طلعت بعد لكن ضوء النهار كان قد انتشر تماماً، والعنادل لم تتوقف عن التغريد.

قال له:

- اذهب وقل لرئيس الحرس إنني أريد الخروج للنزهة، وأسرجوا الخيول.

- 24 -

كان عزاء بوتلر الوحيد في ذلك الوقت هو المأثرة الرومنسية الحربية التي كرّس نفسه لها، ليس في الخدمة العسكرية فقط بل وفي حياته الخاصة. فكان يتبختر على حصانه مرتدياً بذلة شركسية، وذهب مرتين مع بوغدانوفيتش في كمين، رغم أنهما في كلتا المرتين لم يرصدا ولم يقتلا أحداً. وبدا لبوتلر أن هذه الجسارة، وصداقته مع بوغدانوفيتش المقدام، أمرٌ سار ومهم. وقد وفى دينه مقترضاً المال من يهودي بنسبة فائدة ضخمة، أي أنه أرجأ مشكلته التي لا حلّ لها فحسب. كان يحرص على عدم التفكير في وضعه، وحاول أن يجد السلوان في النبيذ، فضلاً عن الشاعرية الحربية. كان يشرب أكثر فأكثر يوماً بعد يوم، وكان يَهِنُ خُلقياً أكثر فأكثر يوماً بعد يوم، ولم يعد الآن يوسف[1] الرائع عندما يتعلق الأمر بماريّا دميتريفنا، بل، على العكس، صار يطاردها بفظاظة، ولدهشته، تلقّى منها صدّاً حاسماً، الأمر الذي أخجله بشدة.

في أواخر نيسان وصلت إلى الحصن الفصيلة التي خصصها بارياتينسكي من أجل التحرك الجديد عبر مجمل الشيشان التي

(1) يقصد النبي يوسف، كنايةً عن العفّة. (م)

تُعدُّ عصيّة. كانت الفصيلة تضم سريتين من الفرقة الكَبَردينية، وهاتان السريتان اعتُبرتا، تبعاً لتقاليد القوزاق، ضيفتين على السرايا المرابطة في كورين. فتمّ توزيع الجنود على الثكنات ولم يقدّموا لهم العشاء والعصيدة ولحم البقر فقط بل والفودكا أيضاً. ونزل الضباط القادمون في مساكن الضباط المقيمين، وعلى جري العادة استضاف المقيمون القادمين وأولموا لهم. وقد انتهت الضيافة بالسكر والغناء، فامنطى إيفان ماتفييفيتش، الثمل بشدة بحيث لم يعد أحمرَ وإنما أسمرَ شاحباً، كرسياً واستلّ سيفه وراح يجندل أعداء متخيَّلين، وكان يشتم تارةً ويضحك تارة أخرى ثم يعانق أحدهم أو يرقص على إيقاع أغنيته المفضّلة التي تقول: «بدأ شامل بالتمرد في الأعوام الخوالي، تراي-راي-راتاتاي... في الأعوام الخوالي».

كان بوتلر أيضاً هناك، وحاول أن يرى حتى في هذه العربدة مأثرةً حربية رومنسية، غير أنه في أعماقه شعر بالشفقة تجاه إيفان ماتفييفيتش، لكن لم يكن هناك أي سبيل لإيقافه. ولمّا شعر بوتلر بالثمل في رأسه خرج بهدوء ومضى إلى بيته.

كان البدر يضيء البيوت البيض وحجارة الطريق. وكان الضوء ساطعاً بحيث أن كل حصاة وقشّة وعلامة في الطريق كانت مرئية. ولمّا شارف بوتلر على البيت التقى ماريا دميتريفنا وقد وضعت منديلاً يغطّي رأسها وكتفيها. بعد الصدّ الذي تلقّاه من ماريّا دميتريفنا صار بوتلر يتجنّبها خجلاً. أما الآن، تحت ضوء القمر وبسبب النبيذ الذي شربه، فقد سُرّ بوتلر بهذا اللقاء وأراد ملاطفتها ثانيةً، فسألها:

- إلى أين؟

أجابته في مودّة: لرؤية رجلي العجوز.

كان رفضها لتودّد بوتلر إليها حاسماً وقاطعاً تماماً، ولكن لم يكن يطيب لها أنه راح يتحاشاها في الآونة الأخيرة.

- فيمَ ذهابكِ إليه، سيعود.

- هل سيفعل؟

- إن لم يعد بنفسه، أتوا به.

فقالت ماريا دميتريفنا:

- لكن هذا غير لائق. لا داعي لذهابي إذن؟

- أجل، لا تذهبي. الأفضل أن نذهب إلى البيت.

استدارت ماريّا دميتريفنا ورجعت إلى البيت رفقة بوتلر. كان القمر ساطعاً بحيث أنه كانت تتشكل هالة حول رأسَيْ الظلّين السائرين في الطريق. نظر بوتلر إلى الهالة حول رأسه وأراد أن يعرب لها عن إعجابه الشديد بها لكنه لم يعرف كيف يبدأ الكلام. وهي انتظرت ما قد يقول. سارا صامتين على هذا النحو حتى باتا على مقربة من البيت عندما ظهر فارسان من وراء ركن البيت. كان الفارسان ضابطاً وحارسه.

قال ماريّا دميتريفنا: «من هذا الذي حمله الله إلينا؟» وتنحّت جانباً.

كان القمر يضيء الضابط من الخلف بحيث لم تتعرّفه ماريا دميتريفنا إلا بعد أن حاذاهما تقريباً. كان الضابط كامينييف الذي خدم مع إيفان ماتفييفيتش في ما مضى، ولهذا عرفته ماريا دميتريفنا.

قالت ماريا دميتريفنا تخاطبه:

- بيوتر نيكولايفيتش، أهذا أنت؟

فقال كامينييف:

- بشحمه ولحمه. آ، بوتلر! مرحباً! ألم تنم بعد؟ تتنزّه مع ماريا دميتريفنا؟ حذارِ وإلا استهدفك إيفان ماتفييفيتش. أين هو؟

قالت ماريا دميتريفنا مشيرةً إلى الجهة التي تأتي منها أصوات «التُلُمباس»[1] والغناء:

- كما تسمع، يتسامرون.

- ما القصة، أجماعتكم يتسامرون؟

- كلا، ثمة من قدم من «هَسَف يورت» فأولموا لهم.

- آ، هذا حسن. وأنا أيضاً سألحق وأنضم إليهم، فأنا أريده لدقيقة.

سأل بوتلر:

- ما القصة، أثمة مسألة مهمة؟

- بل مسألة تافهة.

- أخير أم شر؟

- حَسَب! خير لنا وشر لآخرين.

وضحك كامينييف.

في تلك اللحظة بلغ السائران وكامينييف منزل إيفان ما تفييفيتش.

(1) التُلُمباس: نوع من الدفوف (بالفارسية).

صاح كامينييف منادياً القوزاقي:

- تشيخيريف، هلاّ اقتربت!

دنا القوزاقي الدوني[1] من الآخرين، وكان في الزيّ الدوني القوزاقي، منتعلاً جزمةً ومرتدياً معطفاً، وعلى سرج حصانه خُرج.

قال له كامينييف وهو يترجّل عن فرسه:

- هيا، أخرج ذاك الشيء.

ترجّل القوزاقي أيضاً وأخرج من الخرج كيساً فيه شيء ما، فأخذه كامينييف من يده وأدخل يده فيه، ثم قال مخاطباً ماريا دميتريفنا:

- هل أريكِ شيئاً غريباً لم تريه من قبل؟ ألن تفزعي؟

قالت ماريا دميتريفنا:

- ولِم قد أخاف؟

فقال كامينييف وهو يخرج رأساً بشرياً من الكيس ويرفعه في ضوء القمر:

- ها هو ذا! هل تعرفونه؟

كان الرأس حليقاً ذا نتوئين بارزين أعلى العينين ولحية سوداء مشذّبة وشارب أسود خفيف الشعر، بعينٍ مفتوحة وأخرى نصف مغمضة، وكانت الجمجمة حليقة ومفلوقة لكن ليس تماماً، والأنف ملطّخاً بدمٍ أسود اللون، وكانت الرقبة ملفوفة بمنشفة ملطّخة بالدماء. ورغم جروح الرأس كلها كان ثمة ما يشي بطيبة طفولية في ثنايا الشفتين المزرقّتين.

(1) نسبةً إلى إقليم الدون الذي أخذ اسمه من نهر الدون. (م)

نظرت ماريا دميتريفنا إلى الرأس، ومن دون أن تنبس ببنت شفة استدارت ومضت بخطى عجولة إلى بيتها. لكن بوتلر لم يستطع إبعاد عينيه عن الرأس المخيف، فقد كان رأس الحاج مراد نفسه، ذاك الذي قضى برفقته أمسيات في أحاديث ودية منذ وقتٍ قريب. سأل:

- كيف ذلك؟ من قتله؟ وأين؟

فقال كامينييف: «أراد الهرب، فقبضوا عليه» وأعاد الرأس إلى القوزاقي، فيما دخل هو برفقة بوتلر إلى البيت.

أضاف كامينييف: ومات ميتةً باسلة.

- لكن كيف حدث هذا كله؟

- انتظر قليلاً إلى أن يأتي إيفان ماتفييفيتش، وحينها سأروي لكم كل شيء بالتفصيل. لقد تمّ إرسالي لأجل ذلك أصلاً. سأطوف به على الحصون والقرى كلها وأعرضه.

أُرسل وراء إيفان ماتفييفيتس فعاد إلى البيت ثملاً، يرافقه ضابطان مخموران مثله، وأخذ يعانق كامينييف.

قال كامينييف:

- جئتُ قاصدك. جئتك برأس الحاج مراد.

- تكذب! قتلوه؟

- أجل، أراد أن يهرب.

- لقد قلت إنه يخادع. أين هو؟ أقصد الرأس؟ هات أرني.

نادوا على القوزاقي فجاء بالكيس مع الرأس. أُخرج الرأس من الكيس، ونظر إليه إيفان ماتفييفيتش طويلاً بعينيه الثملتين، ثم قال:

- ومع ذلك كان رجلاً شجاعاً، دعني أقبّله.

فقال أحد الضباط:

- أجل، كان رأساً صنديداً حقاً.

بعد أن عاين الجميع الرأس أعادوه ثانيةً إلى القوزاقي الذي دسّه في الكيس بحرص شديد محاولاً تخفيف ارتطامه بالأرض قدر المستطاع.

سأل أحد الضباط:

- وماذا ستقول للناس، يا كامينييف، عندما تعرض الرأس؟

صاح إيفان ماتفييفيتش:

- كلا، دعني أقبّله. لقد أهداني سيفاً.

خرج بوتلر إلى حيث سقيفة الباب. كانت ماريا دميتريفنا جالسةً على الدرجة الثانية. التفتت إلى بوتلر ثم أدارت وجهها على الفور، فسألها: «ما خطبكِ يا ماريا دميتريفنا؟» فقالت وهي تنهض: «كلكم سفاحون. إنني أمقتكم. إنكم سفّاحون حقاً»، فقال وهو لا يدري ماذا يقول: «قد يحدث هذا لأيٍّ كان. هكذا هي الحرب». فصاحت ماريا دميتريفنا: «حرب! أي حرب؟ إنكم سفّاحون وكفى. الجسد الميت يجب أن يوارى الثرى، في حين أنهم يكشّرون عن أسنانهم ساخرين»، ثم كرّرت: «سفّاحون حقاً» وغادرت السقيفة ومضت تدخل البيت من الباب الخلفي.

عاد بوتلر إلى غرفة الاستقبال وسأل كامينييف أن يقصّ عليه بالتفصيل كيف جرى الأمر برمّته، وقصّ كامينييف:

لقد جرى الأمر على النحو التالي:

- 25 -

سُمح للحاج مراد بالتجول في ضواحي المدينة على صهوة فرسه، ولكن برفقة حرس من القوزاق قطعاً. كان مجمل عدد القوزاق في المدينة قرابة الخمسين، وكانت القيادة قد أفرزت عشرة منهم للخدمة. أما البقية، فإن أُريد إرسالهم في مهمة، كان لا بدّ من إرسال كل عشرة معاً، وبالدور بموجب أوامر القيادة، مرة كل يومين. ولهذا أُرسل عشرة قوزاق في اليوم الأول مع الحاج مراد، ثم تقرر إرسال خمسة لمرافقته طالبين منه عدم اصطحاب كل أتباعه. لكن الحاج مراد خرج للتنزه يوم 25 نيسان مصطحباً أتباعه الخمسة جميعاً، وبينما كان يمتطي فرسه لحظ القومندان أن رجاله الخمسة ينوون مرافقته فقال له إنه من غير المسموح له اصطحاب الجميع، لكن الحاج مراد لكز فرسه، كمن لم يسمع، فلم يلحّ القومندان.

كان مع القوزاق شرطي من شرطة الريف، حائز وسام القديس جورج، اسمه نازاروف، وهو فتى صغير السن مازال طعم الحليب على شفتيه، شعره محلوق على شكل قوس[1]، بدين أشقر قصير

(1) على شكل قوس من الأمام، وهي حلاقة خاصة بالأطفال. وهو ما يريد تولستوي الإشارة إليه. (م)

القامة، وكان الأخ الأكبر في أسرة فقيرة من طائفة «المؤمنين القدماء»، ترعرع يتيم الأب ويعيل أمه وثلاث أخوات وأخوين اثنين.

صاح به القومندان:

- حاذر يا نازارف، ابقَ قريباً منه!

أجاب نازاروف: «حاضر، معاليكم»، وارتقى الركاب وانطلق خبباً بكُميته الخصي الضخم الجميل الأصهب المحدّب الخطم، ممسكاً ببندقيته على كتفه. وتبعه أربعة من القوزاق: فيرابونتوف، طويل ونحيل، لص وقاطع طريق من الدرجة الأولى، وهو نفسه الذي باع حمزالو بارودا؛ وإغناتوف، وهو رجل تجاوز عمر الشباب، متين البنية يباهي بقوته، وقد أنهى سنوات خدمته؛ وميشكين، وهو صبي ضعيف البنية كان محل سخرية الجميع؛ وبتراكوف، وهو شاب أشقر، الابن الوحيد لأمه، دائم اللطف والمرح.

كان ثمة ضباب في الصباح، لكن صحا الجو عند حلول وقت الفطور، وتألق في نور الشمس ليس فقط ورق الشجر بل كذلك العشب الفتيّ العذريّ وسنابل القمح النامية وتموجات النهر السريع الذي يُرى على يمين الطريق.

كان الحاج مراد يسير بفرسه بخطى متمهلة منتظمة، وكان القوزاق وأتباعه يتبعونه من دون أن يتخلّفوا عنه. خرجوا على هذا النحو إلى الطريق الواقعة خلف الحصن، وصادفوا في طريقهم نساءً يحملن سلالاً على رؤوسهن، وجنوداً على عربات عادية وعربات

صغيرة تصرصر وتجرّها جواميس. بعد أن قطعوا قرابة فرسخين لكز الحاج مراد جواده الكَبَرديني الأبيض وأخذ يعدو عدواً جعل أتباعه يخبّون خبباً سريعاً. وهكذا فعل القوزاق أيضاً.

قال فيربانتوف:

- يا لها من فرس تلك التي يمتطيها! آخ لو كنا في تلك الفترة عندما كان عدواً، لكنت أنزلته عنها حالاً.

- فعلاً يا أخي، فقد عرضوا ثلاثمئة روبل في تفليس لقاء هذه الفرس.

قال نازاروف: «أستطيع أن أسبقه بحصاني هذا»، فقال فيربانتوف: «وكيف لا، ستسبقه!».

ظلّ الحاج مراد يسرع في خطوه، فلحق به نازاروف وهو يصيح: «هيه، يا صاح، هذا لا يجوز. أبطئ». التفت الحاج مراد، ومن دون أن يقول شيئاً واصل بالسرعة ذاتها ولم يبطئ الخطو، فقال إغناتوف: «حذارِ، يبدو أن هؤلاء الشياطين يبيّتون شيئاً. انظر، إنهم ينطلقون بسرعة».

قطعوا على هذا النحو قرابة فرسخ باتجاه الجبال.

صرخ نازاروف ثانية:

- هذا ممنوع، قلت لك.

لم يجب الحاج مراد ولم يلتفت وإنما زاد من سرعته وانتقل من الخبب إلى العدو السريع.

صرخ نازاروف وهو يندفع مسرعاً: «خسئت، لن تفلت»، وساط كميته الخصي الأصهب الضخم، ونهض واقفاً على الركاب، منحنياً إلى الأمام، وأرخى لفرسه العنان في إثر الحاج مراد.

كانت السماء صافية جداً، والهواء منعشاً، وكانت طاقة الحياة تلعب بمرح في نفس نازاروف عندما طار مندفعاً، وقد اتّحد بفرسه الطيبة القوية، على الطريق المستوية في إثر الحاج مراد، ولم يخطر بباله قط احتمال حدوث أي خطب، محزن أو مروّع. كان مسروراً بأنه مع كل خطوة يقترب أكثر من الحاج مراد. أدرك الحاج مراد من وقع حوافر فرس القوزاقي الضخمة التي تقترب أنه سرعان ما يدركه، فتناول غدّارته بيده اليمنى، وأخذ باليسرع يكبح شيئاً فشيئاً جواد الكَبَرديني الذي أهاجه سماع وقع حوافر الفرس خلفه.

«ممنوع، قلت لك!» صرخ نازاروف الذي كان قد حاذى الحاج مراد تقريباً وهو يمدّ يده للإمساك بعنان فرسه، ولكن قبل أن يتمكّن من الإمساك بالعنان دوّتْ طلقة.

صرخ نازاروف وهو يمسك بصدره: «ما هذا الذي تفعله؟ اقتلوهم يا شباب»، وترنّح وهوى على قربوس السرج.

لكن الجبليين استلّوا أسلحتهم قبل القوزاق وراحوا يطلقون عليهم النار من مسدساتهم ويطعنونهم بسيوفهم. كان نازاروف متدلياً من رقبة فرسه التي تدور حول رفاقه في فزع، وهوت الفرس تحت إغناتوف مهشّمةً رجله، فاستلّ جبليان سيفيهما وراحا يطعنانه في رأسه ويديه من دون أن يترجّلا عن جواديهما. همّ

بتراكوف بالانقضاض لنصرة رفيقه لكن طلقتين، إحداهما أصابت ظهره والأخرى جنبه، ألهبتاه وخرّ من فوق فرسه مثل جولق[1].

أدار ميشكين عنان فرسه وأسرع باتجاه الحصن. انطلق حنيفي وخان محمه في إثره لكنه كان قد ابتعد كثيراً ولم يتمكّن الجبليان من إدراكه، ولمّا وجدا أنهما لن يدركا القوزاقي عادا أدراجهما. وبعد أن قضى حمزالو على إغناتوف بخنجره أنزل نازاروف عن فرسه وأجهز عليه هو أيضاً. نزع خان محمه أجربة الخرطوش عن القتلى، وأراد حنيفي أن يأخذ فرس نازاروف لكن الحاج مراد صاح به أن لا داعي لذلك وانطلق إلى الأمام في الطريق، وتبعه مريدوه وهم يطردون فرس بتراكوف التي تعدو خلفهم. كانوا قد أصبحوا على مبعدة ثلاثة فراسخ عن نوخا وسط حقول الأرز حين دوّت طلقة إنذار في برج الحصن.

كان بتراكوف مستلقياً على ظهره ببطنٍ ممزّق، ووجهه الفتي متّجهاً إلى السماء، ثم انتفض مثل سمكة ومات.

لمّا علم آمر الحصن بفرار الحاج مراد أمسك برأسه وصرخ:

– يا آبائي، يا أسلافي الأولين، ما هذا الذي فعلوه!

ثم هتف وهو يستمع إلى تقرير ميشكين:

– لقد قطعوا رأسي! غفلنا عنهم وتركناهم يفلتون، المجرمون!

أُعلن الإنذار في كل مكان، ولم يتم إرسال القوزاق المتوفرين فقط وراء الفارّين بل جُمع كل ما أمكن من عناصر الشرطة من القرى المسالمة. كما وأُعلن عن مكافأة قدرها ألف روبل لمن يأتي بالحاج

(1) الجولق هو كيس الخيش الذي يسمّى بالعامية «شوال». (م)

مرادِ حياً أو ميتاً. وبعد مرور ساعتين على فرار الحاج مراد ورفاقه من القوزاق كان مئتا فارس يرمحون بخيولهم في إثر رئيس الحرس للبحث عن الفارّين والقبض عليهم.

بعد قطع بضعة فراسخ على الطريق العريضة كبح الحاج مراد جواده الأبيض الذي كان يلهث وقد استحال رمادياً جرّاء العرق وتوقّف. كانت تلوح إلى يمين الطريق بيوت ومنارة مسجد قرية «مِلارادجيك»، وإلى اليسار كانت هناك حقول يُرى في نهايتها نهر. ورغم أن الدرب نحو الجبال كانت تقع إلى اليمين، إلا أن الحاج مراد انعطف إلى الجهة الأخرى، الجهة اليسرى، مقدّراً أن مطارديه سينطلقون حتماً نحو الجهة اليمنى. أما هو فسيهجر الطريق، ويعبر «آلازن» عبر درب غير مطروقة، ويخرج إلى الطريق العامة حيث لا يتوقّع أحد، ويسير فيها وصولاً إلى الغابة، وعندذاك يعبر النهر من جديد ويتوجّه إلى الجبال عبر الغابة. فلمّا انتهى إلى هذا القرار انعطف يساراً. لكن تبيّن أن بلوغ النهر ليس ممكناً، فحقول الأرز التي كان يجب اجتيازها كانت قد غمرتها الماء تواً، كما يحدث عادةً في الربيع، واستحالت مستنقعاً غاصت فيها قوائم الخيول حتى أرساغها. أخذ الحاج مراد ومريدوه يسعون يميناً ويساراً أملاً في العثور على منطقة جافة، إلا أن الحقل الذي وجدوا أنفسهم فيه كانت المياه قد غمرته كله وبات الآن متشبِّعاً به. كانت الخيول تنقل قوائمها الغائصة في الوحل اللزج في تثاقل محدثةً طقّات كطقّة الفلينة، ولم تكد تمشي بضع خطوات، لاهثةً بصعوبة، حتى توقفت.

ظلّوا يتخبّطون على هذا النحو طويلاً بحيث إن الغروب بدأ يحلّ ولم يكونوا قد بلغوا النهر بعد. كانت إلى يسارهم جزيرة صغيرة أغصان الأشجار فيها متدلية تحت ثقل الأوراق، فقرر الحاج مراد بلوغ ذاك الدغل للمكوث فيه إلى أن يحلّ الليل، ولإراحة الخيول المنهكة.

ولمّا بلغوا الدغل ترجّل الحاج مراد وأتباعه عن خيولهم وحلّوا ألجمتها وأطلقوها ترعى، فيما تناولوا هم الخبز والجبن اللذين حملوهما معهم. انحدر الهلال، الذي كان يضيئهم، خلف الجبل، وحلّ الليل الداجي. كانت العنادل في نوخا كثيرة بشكل خاص، وكان ثمة اثنان منها في ذاك الدغل، وطالما كان الحاج مراد ورجاله يثيرون الصخب بهزّهم الأغصان، كان العندليبان ساكتَين، فلمّا سكنوا أخذا يغرّدان وينادي أحدهما الآخر من جديد. وراح الحاج مراد، الذي كان يصغي إلى أصوات الليل، يصغي إليهما لاإرادياً.

وقد ذكّره تغريدهما بتلك الأغنية عن حمزة، التي سمعها في الليلة السابقة عندما خرج لجلب الماء. فقد يجد نفسه الآن في أي لحظة في الموقف الذي كان فيه حمزة، ودار في خلده أن هذا ما سيحدث فاغتمّ فجأةً، وبسط عباءته وصلّى. ولم يكد ينهي الصلاة حتى تناهت إليه أصوات تقترب من الدغل. كانت أصوات عدد كبير من حوافر الخيل وهي تخوض في المستنقع. هرع خان محمه الحاد النظر إلى أحد أطراف الدغل وحدّق في الظلام فرأى أطيافاً سود لخيّالة ومشاة يقتربون باتجاه الدغل. كما أنه رأى حشداً مماثلاً من

الجهة الأخرى. كان هذا القائد العسكري للإقليم كارغانوف[1] مع رجال شرطته.

قال الحاج مراد في سرّه: «لا بأس، سنقاتل كما قاتل حمزة».

بعد إطلاق الإنذار انطلق كارغانوف مع المئات من رجال الشرطة لمطاردة الحاج مراد، لكنه لم يعثروا عليه في أي مكان، ولم يقعوا له على أثر. وكان كارغانوف عائداً إلى بيته فاقد الأمل عندما صادف في طريقه قبيل الغروب شيخاً تترياً، فسأله إن كان قد رأى ستة فرسان، فأجاب إنه رآهم، وقال إنه رأى ستة فرسان يدورون في حقل الأرز ثم توجّهوا إلى الدغل الذي كان يجمع فيه الحطب. فاصطحب كارغانوف العجوز وعاد أدراجه، ولمّا رأى الجياد المربوطة إلى أرسانها أيقن أنه هنا، فطوّق الدغل في الليل منتظراً انبلاج الفجر كي يقبض على الحاج مراد حياً أو ميتاً.

حين أدرك الحاج مراد أنه محاصر وجد في وسط الدغل قناةً قديمة وقرر التخندق فيها والقتال ما دام لديه ذخيرة وقدرة على القتال، وأخبر رفاقه بذلك وأمرهم بإقامة متراس على القناة، فشرع الرجال من فورهم في قطع أغصان الأشجار وحفر الأرض بخناجرهم لإقامة متراس. وعمل الحاج مراد نفسه معهم.

ما إن انبلج الفجر حتى دنا آمر شرطة الريف من الدغل راكباً حصانه وصاح:

(1) يوسف إيفانوفيتش كارغانوف: القائد العسكري لمدينة نوخا التي أقام فيها الحاج مراد قبل هربه. أثناء عمله على الرواية توجّه تولستوي إلى أرملة كارغانوف سائلاً إياها أن تخبره بكل ما تذكره عن فرار الحاج مراد ومقتله. كان تولستوي مهتماً بتفاصيل مثل: هل كان الحاج مراد يتكلم الروسية ولو قليلاً؟ لمن كانت الجياد التي هربوا بها؟ هل كان عرجه واضحاً؟ من من مريديه هرب معه؟... إلخ. (محرر النص الروسي)

- هيه، يا حاج مراد، استسلم! نحن كثر وأنتم وقلّة.

ردّاً على ذلك تصاعد دخان من القناة وفرقعت بندقية، وأصابت رصاصةٌ فرسَ شرطيٍّ، فترنّحت تحته وأخذت تتهاوى. وفي إثر ذلك فرقعت بنادق رجال الشرطة الرابضين عند تخوم الدغل، وشرعت طلقاتهم ترتطم، وهي تئزّ وتصفّر، بالأوراق والأغصان ثم تسقط في الخندق، لكنها لم تصب الرجال القابعين خلف المتراس. وحدها فرس حمزالو الشاردة بعيداً تمكّنوا من إصابتها برصاصة في رأسها، لكنها لم تسقط بل مزّقت الرسن واندفعت نحو الأفراس الأخرى مخشخشةً عبر الشجيرات، ولمّا اندسّت بينها روثْ بدمها العشب الفتي. لم يكن الحاج مراد ورجاله يطلقون النار إلاّ عندما يتقدّم أحد رجال الشرطة نحوهم، ونادراً ما كانوا يخطئون الهدف. جُرح ثلاثة من الشرطة، لذا فإن عناصر الشرطة ليس فقط لم يتجرأوا على مهاجمة الحاج مراد ورجاله بل كانوا يبتعدون أكثر فأكثر ويطلقون النار من بُعد كيفما اتفق.

استمر الأمر على هذا النحو أكثر من ساعة. علت الشمس إلى ما يقرب من نصف ارتفاع الشجر، وكان الحاج مراد قد بدأ يفكّر في امتطاء الفرس ومحاولة بلوغ النهر عندما تعالت من جديد صيحات حشدٍ كبير وصل للتوّ. كان هذا هاجي آغا المختوليني ورجاله، وكانوا قرابة مئتي رجل. كان هاجي آغا ذات يوم أخا الحاج مراد في العهد وعاش معه في الجبال، لكنه انتقل إلى صف الروس في ما بعد. كان برفقته أيضاً أحمد خان، ابن عدو الحاج مراد. حذا هاجي آغا حذو كارغانوف بأن أخذ يصيح داعياً الحاج

مراد إلى الاستسلام، لكن الحاج مراد ردّ عليه بالرصاص كما فعل أول مرة.

هتف هاجي آغا وهو يستلّ سيفه: «امتشقوا سيوفكم يا شباب!» فَعَلا صوت مئات الرجال الذين هجموا على الدغل وهم يزعقون.

هرع رجال الشرطة يقتحمون الدغل، لكن دوّت طلقات عديدة من خلف المتراس الواحدة تلو الأخرى، فسقط ثلاثة رجال، وتوقّف المهاجمون. والرجال المرابطون عند تخوم الدغل أيضاً بدأوا يطلقون النار، وكانوا يقتربون شيئاً فشيئاً، وهم يطلقون النار، منتقلين من شجيرة إلى أخرى. وكان بعضهم يتمكنون من العبور فيما يسقط آخرون صرعى من رصاصات الحاج مراد ورجاله. كان الحاج مراد لا يخطئ الهدف، وكذلك حمزالو الذي قلّما أهدر رصاصة عبثاً، وكان يصيح من الفرح كلّما رأى أن رصاصته أصابت هدفها. وكان خان محمه جالساً على طرف القناة وهو يهتف «لا إله إلا الله» ويطلق النار دونما عجلة، لكنه قلّما كان يصيب الهدف. أما إلدار فكان جسده كله يرتعش لشدة رغبته في الانقضاض على الأعداء بخنجره وكان يطلق النار كيفما اتفق وهو يلتفت إلى الحاج مراد باستمرار ويمطّ قامته خارج المتراس. وحتى هنا كان حنيفي يقوم بواجبات الخادم وقد شمّر عن ساعديه، فكان يذخّر البنادق التي يناوله إياها الحاج مراد وخان محمه، دافعاً في حرص بمدكٍّ حديدي الطلقات الملفوفة في خرق مزيّتة، ويذرّ البارود الجاف من قارورة في طاسات. ولم يكن خان محمه جالساً في القناة، كالآخرين، وإنما كان يهرع نحو الجياد ليبعدها إلى مكان أكثر أمناً، وكان يزعق بلا

توقّف ويطلق النار من دون أن يسند بندقيته إلى ركيزة. وكان أول من أُصيب. أصابته الرصاصة في رقبته فجلس وهو يبصق دماً ويشتم. ثم أُصيب الحاج مراد. اخترقت الرصاصة كتفه، فمزّق قطعةً من الكتّان من بطانة قفطانه ودسّها في الجرح ثم واصل إطلاق النار.

قال إلدار للمرة الثالثة: «فلننقضّ عليهم بسيوفنا»، ومطّ قامته فوق المتراس متأهباً للانقضاض على العدو، ولكن في تلك اللحظة أصابته رصاصة فترنّح وسقط على ظهره، على قدم الحاج مراد. رنا إليه الحاج مراد. كانت عيناه الكبشيتان الرائعتان تحدّقان في الحاج مراد في إمعان وجدية، وكان فمه، بشفته العليا الممطوطة كشفاه الأطفال، يختلج من دون أن ينفتح. انحنى حنيفي فوق إلدار القتيل وراح يستخرج الذخيرة غير المستعملة من حزام سترته الشركسية. وكان خان محمه في هذه الأثناء يواصل الغناء ويذخّر بندقيته في تمهّل ويسدّد.

كان الأعداء يركضون من شجرة إلى شجرة وهم يزعقون ويهللون، ويقتربون شيئاً فشيئاً. أصابت رصاصة أخرى الحاج مراد في جنبه الأيسر، فاستلقى في القناة ثانيةً ومزّق قطعةً من الكتّان من قفطانه ودسّها في الجرح. كان الجرح في جنبه مميتاً، وشعر الحاج مراد أنه يحتضر.

أخذت الذكريات والصور تتالى في خياله بسرعة غير عادية، فكان يرى أمامه تارةً أبونونتسال الشديد البأس وكيف ثبّت خدّه المقدود المتدلّي وانقضّ على عدوه والخنجر في يده؛ ويرى تارةً أخرى العجوز الضعيف الممتقع الوجه فورنتسوف بوجهه الأبيض

الماكر ويسمع صوته الناعم؛ أو يرى ابنه يوسف، أو زوجته صوفية، أو وجه عدوه شامل الشاحب بلحيته الصهباء وعينيه المزرورتين.

كل هذه الذكريات تلاحقت في خياله من دون أن تثير فيه أي أحاسيس: لا الشفقة، ولا الغضب، ولا أي رغبة. بدا له هذا كله تافهاً مقارنةً بما هو مقبل عليه، بل هاهو يقبل عليه. ومع ذلك واصل جسده القوي القيام بما بدأ فيه. فقد حشد ما تبقّى من قواه ونهض واقفاً وأطلق النار من خلف المتراس من مسدسه على رجلٍ راكضٍ نحوه وأصابه، فسقط الرجل. ثم خرج من الخندق تماماً وتوجّه إلى الأمام مباشرةً حاملاً الخنجر، وهو يعرج بقوة، للقاء العدو. دوّت بضع طلقات، فترنّح وسقط. هجم عددٌ من رجال الشرطة على الجسد الهامد وهم يزعقون في ابتهاج، لكن ما بدا لهم جسداً تحرّك فجأةً. في البداية نهض رأسه الحليق المدمّى بلا عمامة، وبعد ذلك نهض بدنه، ثم تمسّك بشجرة وانتصب واقفاً كله. بدا مخيفاً جداً بحيث توقّف الراكضون نحوه، ولكنه ارتعش فجأةً وترنّح مبتعداً عن الشجرة وهوى بكل قامته على وجهه، كنبتة لفت اجتُثّت بمنجل، ولم ينهض بعد ذلك.

لم يكن يتحرك لكنه كان لا يزال يحسّ، ولمّا ضربه هاجي آغا، الذي كان أول الواصلين إليه، على رأسه بخنجره الكبير شعر أن ثمة من يدقّ رأسه بمطرقة، ولم يستطع أن يفهم من يفعل ذلك ولماذا. كان هذا آخر ما وعاه فيما يتعلق بجسده، إذ لم يعد يشعر بشيء بعد ذلك، وكان الأعداء يدوسون ويمزّقون ما لم يعد يجمعه بالحاج مراد شيء. وضع هاجي آغا قدمه على ظهره وأطاح رأسه بضربتين، ثم

دحرجه بقدمه بحذر حتى لا يتلطّخ خفّاه بالدم. تدفق الدم القاني من شرايين رقبته والأسود من رأسه وغمر العشب.

تجمّع كارغانوف وهاجي آغا وكل رجال الشرطة فوق جثة الحاج مراد ورجاله (حنيفي وخان محمه، وحمزالو الذي أوثقوه)، مثل صيادين فوق حيوانٍ مفترسٍ قتيل، وراحوا يتحدثون ويحتفلون بالنصر وسط دخان البارود المخيّم فوق الشجيرات.

العنادل التي ظلت ساكتة أثناء المعركة أخذت تغرّد من جديد، في البداية واحد منها على مقربة ثم تبعته العنادل الأخرى في آخر الدغل.

هذه هي الميتة التي ذكّرتني بها نبتة اللفت المسحوقة وسط الحقل المحروث.

«بالنسبة لي، الحاج مراد هي أفضل قصة في العالم».

هارولد بلوم

كتب تولستوي هذه الرواية في السنوات الأخيرة من عمره، في فترة كان يعاني فيها من المرض الذي أدّى إلى وفاته، حتى قيل عنها إنها تبدو كموقف أراد اتخاذه في مواجهة الظلم ومناقشة معنى العدالة. من جهة أخرى تحمل الرواية رأي تولستوي المنتقد لطريقة تعامل روسيا القيصرية مع شعب داغستان.

في هذه الرواية، كما في رواية الحرب والسلم، يبدو أن تولستوي بقدر ما يقدّر صفات البطولة ويرفض الظلم، فهو يعارض فكرة الفناء من أجل المجد. ولذلك هو يرسم نهاية غير مجيدة لذلك البطل النموذج. وكما هو الحال في معظم أعماله يقدّم صورة عن مجمل التاريخ الروسي المليء بالحروب والمؤامرات والخيانات، والمعاناة أيضاً.

إنما يبقى محور هذه الرواية هي حياة تلك الشخصية، الحاج مراد، التي صوّرها بطريقة جذّابة محبّبة، وحياة أهل القفقاس القاسية والظلم الذي يتعرّضون له.

على الرغم من صغر حجمها، فقد اعتُبرت قصة «الحاج مراد» كإحدى أجمل روائع تولستوي، ولقيت إقبالاً واسعًا من القرّاء، حتى أنها تركت تأثيراً على غاندي في فكرة المقاومة السلمية. وقال عنها الفيلسوف المعروف «فيتغنشتاين» الذي كان معجّباً بها: «إنها تمتلك برود، ووضوح العمل المتأخر».

تصميم الغلاف نُجاح طاهر

ISBN 978-9938-886-84-9

9 789938 886849

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس